كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

أثر الطباق فى بلاغة القصص النبوى

دكتورة
هدى أحمد محمد زين
مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
(بنات القاهرة)

(العدد الواحد والثلاثون – الجزء الثالث ٢٠١٢م)

المقدمة

"الحمد الله الفتاح المنان، ذي الطول والسعة والغنى، والفضل والإحسان، الذي من علينا بالإيمان، وفضل ديننا على سائر الأديان، ومحا بحبيبه وخليله عبده ورسوله محمد ﷺ عبادة الأوثان، وخصه بالمعجزة، والسنن المستمرة على تعاقب الأزمان، ﷺ وعلى سائر النبيين وآل كل ما اختلف الملوان الليل والنهار، وهم الجديدان، وما تكررت حكمه، وذكره، وتعاقب الجديدان"(١).

"إن ألفاظ السنة ومعانيها مازالت غضة طرية"(٢)، تحتاج إلى البحث والتنقيب، وإزالة اللثام عنها، لإخراج ما تحمله من معان جميلة، ومغازي جليلة، وما أحوجنا اليوم إلى سنة رسولنا محمد ﷺ لنطبقها على سائر مناحي حياتنا، فهي المنهل الذي اتخذ القرآن الكريم منهجا ونبراسا، يهتدى به، كما سئلت عن ذلك السيدة عائشة –رضي الله عنها– فقالت: " وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى "النجم٣، ٤".

ولقد أولى العلماء القرآن الكريم عناية فائقة، فأخذوا يتدارسونه، وأهملوا السنة الحديثية، بالرغم من أن القدامى قد عكفوا على دراستها ، حتى وصف الجاحظ بلاغة الرسول ﷺ بقوله: وهو الكلام الذي قلت حروفه، وكثرت معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف .. كيف وقد عاب التشديق، وجانب التقعيب ، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق الإ عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشُدَّ بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله

---

(١) مقدمة صحيح البخاري بشرح الكرماني، جـ١، ص١، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٢) ينظر: الطراز للعلوي، حـ ٣/٣٤٥.

عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أقحمه خطيب"(١).

ولقد بلغت بلاغة الرسول ﷺ الكمال والذروة في البيان البشري يقول الرافعي عنها: "هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تُصنَع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها، وهي على السهولة بعيدة ممنوعة"(٢).

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

فهذا البحث يلقي الضوء على أثر "الطباق في بلاغة القصص النبوي في صحيح البخاري" فقد تناول الطباق وأنواعه، وسماته، وكيف تم توظيفه في القصص النبوي.

"فلا شك أن دراسة القصة النبوية تكشف أبعاداً متنوعة في البلاغة النبوية، وتسهم في تحقيق الخصيصة الرئيسية من خصائصها، وهي الإبلاغ تضئ معالم العقيدة الإيمانية، وما ترمى إليه من صلاح واستقامة للإنسان"(٣).

ولذلك كان الرسول ﷺ النموذج الحيّ للتربية الإسلامية، والمفسر لهذا

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون حـ٢، ص١٧، ١٨ دار الجيل – بيروت.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ١٩٣ ، دار الكتاب العربي ط، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م .

(٣) الأنوارالجلية في البلاغة النبوية، د / وليد سعيد الشيمي ٣٠٥ (بتصرف)، دار الأندلسي للنشر والتوزيع حائل. ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، .

المنهج، سواء بأخلاقه الذاتية أو بتوجيهاته للناس"[1].

"وكان استخدام القصص في التعليم والتربية معروفاً في المجتمعات ... وقد استعان القرآن الكريم بالقصص في التربية النفسية للناس في وعظهم وإرشادهم، وفي تعليمهم كثير من العبر والحكم لقوله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "يوسف: ١١١".

واستعان الرسول ﷺ ايضاً بالقصص في التربية النفسية لأصحابه ... في إثارة انتباههم، وفي تشويقهم على الاستيعاب بالموعظة والحكمة، وكثير من الأغراض التربوية مثل: تعليم أصحابه فضل الإيمان بالله وتوحيده، وعدم الشرك به، والإيمان برسوله ﷺ والرحمة بالناس ... وغيرها من الصفات الحميدة التي يجب أن يتحلى بها المؤمن[2].

أما الذي دفعني إلى دراسة ذلك الموضوع وهو " أثر الطباق في بلاغة القصص النبوي " عدة أسباب هي:

١- أن الطباق لم يأتي في القصص النبوي لمجرد الزينة اللفظية، ولا للزخرفة الشكلية العرضية، فقد اقتضاه المقام، وتطلبه المعنى[3].

٢- كثرة الطباق في القصص النبوي بكل أنواعه، مما يدل على إدراك الرسول ﷺ لأهميته في الكلام، ويعمل على شد الانتباه والتشويق.

٣- ورد الطباق في القصص النبوي بطريقة عفوية وتلقائية، "مما أعطى للكلام

---

(١) منهج التربية الإسلامية، د / محمد قطب، ص ٩ط. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) ينظر: الحديث النبوي وعلم النفس، د / محمد عثمان نجاتي، ص / ١٧٣، "بتصرف"، دار الشروق، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٣) ينظر: علم البديع، د/ بسيوني فيود، ص ١٣٩، (بتصرف) طبعة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط. ثالثة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م .

النبـوي تفوقـاً ملحوظـاً، وأكسـبته نضـارة ورواء، فضـلاً عـن الموسـيقى التعبيرية"[١].

٤- الطباق في القصص النبوي يؤكد المعاني ويقررها، لأن الضد يُظْهِرُ حُسنه الضد.

٥- الطباق يساعد على شدة التأثير والتناغم الموسيقى.

أما اختياره في القصص النبوي، وذلك لأن، "التصوير بالقصة من أجمل أساليب التصوير، وأعمقها أثراً في النفس، ذلك لأن النفس البشرية ميالة لسماع القصة، تجد فيها الأنس والمتعة في متابعة أحداثها، وقد تجد فيها ما تريده "فيترك ذلك فيها من التأثير والاستمتاع ما لا تبلغه وسيلة أخرى"[٢].

١- لأن القصص يشد الانتباه، ويثير التشويق والإثارة إلى متابعة أحداثها.

٢- القصة أداة سهلة الفهم، كما أنها تحظى بالقبول من العامة والخاصة على السواء[٣].

٣- جهل أغلب الناس بالقصص النبوي، ومعرفتهم للقصص القرآني.

٤- أن القصة شاعت في العصر الحديث بما تحمل من مفاسد أخلاقية.

أما اختياره في صحيح البخاري ذلك لأنه قد "اشتهر بأنه أول مصنف صُنف في الصحيح المجرد ، وأول الكتب الستة ، وأفضلها عند الجمهور على المذهب

---

(١) مدخل إلى للبلاغة النبوية، د / محمد حلمي القاعود ص ١٥١ (بتصرف)، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع ط. أولى ١٤٣٣هـ - ٢٠١١م.

(٢) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، د/ محمد لطفي الصباغ، ص ٤٩٨، ط١ / طبعة المكتب الإسلامى ١٤٠٩هـ - ١٩٩٨م.

(٣) الحديث النبوي وعلم النفس، ص /١٧٣.

المختار"[1].

أما منهج البحث فهو يقوم على المنهج الانتقائي التحليلي، فقد قمت بالخطوات التالية:

١- قمت بانتقاء بعض القصص النبوي، وبيان بلاغة الطباق فيها، ولم أستقص، لأن الاستقصاء مما يطول به المقام.

٢- قسمت تلك النماذج المختارة من القصص النبوي إلى سياقات مختلفة.

٣- ذكرت نص الحديث، ثم بينت معاني الكلمات الصعبة، ثم شرحت الحديث شرحاً بلاغياً، ثم قمت باستخراج الطباق، ومدى بلاغته، ولم أكتف بذلك، بل – أحياناً – كان يوجد بعض النكات البلاغية الأخرى، كالتشبيه، والاستعارة، والسجع، وغيرها، فقمت ببيان ذلك، وذلك لأن النكات البلاغية تتعاضد وتتآزر ولا تتعارض.

٤- قمت ببيان بلاغة الرسول ﷺ، ومدى توفيقيه ودقته في اختيار مادة الطباق، بحيث اختار لها اللفظ الملائم لها الذي لو استدل لأشكل المعنى.

٥- أحياناً أبين مدى أهمية معرفة صفات الحروف في الكلمات، المتضادة، لما له من الأثر في قوة المعنى وإثرائه.

٦- سوف أتطرق إلى بعض الأمثلة التي بها مقابلة، لأنها نوع خاص من الطباق، كما ذهب إلى ذلك الخطيب[2]، وشراحه، من حيث أنها تجمع بين

---

(١) ينظر: مقدمة صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، جـ١، ص/٥ وما بعدها، ط أولى ١٤٣٣هـ – ط دار طوق النجاة للطباعة والنشر والتوزيع، مقدمة صحيح البخاري بشرح الكرماني حـ١، ص/٣ ومختصر صحيح البخاري للزبيدي جمعه شهاب الدين عبد اللطيف الشرجي ص/١٣، ١٤٣٣هـ – ٢٠٠٣م، ط دار المنار.

(٢) شروح التلخيص ٢٩٧/٤، ط. دار البصائر. شروح عقود الجمان للسيوطي، ص/١٠٧، مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م.

متقابلين.

يقول الشيخ الدسوقي: "دخل هذا النوع المسمى بالمقابلة في الطباق، لأنه جمع بين معنيين متقابلين في الجملة، أي على وجه مخصوص، وحيث كان في المقابلة جمع بين معنيين متقابلين في الجملة كانت طباقاً لصدق تعريفه عليها"(١).

وإن كانت المقابلة تكون بين معنيين فأكثر، والطباق لا يكون إلا بين معنيين فقط، ذهب بعض العلماء إلى أنها قسم مستقل بذاته(٢).

ولكنَّ الراجح ما ذهب إليه الخطيب وشراحه، وذلك لأن المقصود هو الجمع بين المعاني المتضادة، وذلك متحقق في المعنيين أو المعاني المتعددة بحسب ما يقتضيه المقام.

أما خطة البحث: فإنها قد جاءت في مقدمة، وتمهيد، وتقسيم قصصى ، وخاتمة، وفهارس فنية.

المقدمة: ذكرت فيها أهمية البحث ومنهج السير فيه.

التمهيد: تناولت فيه:

أولا: التعريف بالقصة النبوية.

ثانيا: خصائص القصة النبوية.

ثالثا: تعريف الطباق لغة واصطلاحاً، وقيمته البلاغية، مع ذكر بعض أنواعه.

القصة الأولى : قصة أصحاب الغار.

---

(١) ينظر: حاشية الدسوقي ٢٩٧/٤، "ضمن شروح التلخيص"، ومن الأسرار البلاغية في المقابلة القرآنية، د / هويدا إبراهيم حسن، ص/١٦٥٣، بحث منشور بمجلة الزهراء، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة، حـ٢، العدد ٢٣، ١٤٣٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر: المفتاح للسكاكي، ص ٢٠٠، والبلاغة فنونها وأفنانها د/ فضل حسن عباس ص/ ٣٨٣ طبعة دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط ١٠، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

القصة الثانية : التوبة.

القصة الثالثة : الخوف والرجاء.

القصة الرابعة : الابتلاء والشكر

القصة الخامسة : الرحمة بالحيوان.

القصة السادسة : إنظار المعسر.

القصة السابعة : الحث على الزواج.

القصة الثامنة : إيثار الآخرة.

القصة التاسعة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

القصة العاشرة : النهي عن المحاباة بتطبيق الحدود.

القصة الحادية عشر : تعذيب الحيوان.

وأخيراً: أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذا العمل مباركاً، وخالصاً لوجهه الكريم، وأن ينتفع به طلاب العلم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحثة
هدى أحمد محمد زين
المدرس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
(بنات القاهرة) قسم البلاغة والنقد

تمهيد

نبذة عن القصة النبوية والطباق:

اولا:أهمية القصص النبوي وخصائصه:

تعد القصة "إحدى أسلحة القرآن في الهداية والإرشاد" [1]، "وجاءت القصة في القرآن لتسهم فيما يرمى إليه القرآن بعامة من الوعظ والنصح والإرشاد، وليكون فيها معين لا ينضب من الأسى للرسول الكريم، فيصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولقد أوضح القرآن هذين الهدفين من إيراد القصة فيه " وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [2] "الأعراف/١٧٦".

ولقد أتت القصص في معظم سورالقرآن وآياته، "ليحاج بها الناس، ولتقطعهم عن الجدل"[3].

"فضلاً عن رغبة العربي في القصص واستملاحه لها"[4].

فكان من الطبيعي أن تعد القصة من إحدى أسلحة الرسولﷺ في دعوته الشريفة، وسيلة من وسائل الإقناع عنده، ولقد لخص لنا الدكتور/ طلعت عفيفي

---

(1) من البيان النبوي محمد رجب البيومي، ص/١٢٦، ط. أولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

(2) ينظر: من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوي، ص/٢٧٦، ط. نهضة مصر للطباعة والنشر التوزيع.

(3) القصص القرآنى ، مفهومه ومنطوقه د/ عبد الكريم الخطيب، ص٧، ط. السنة المحمدية بالقاهرة، ط١، ١٣٨٤هـ - ١٩٩٦م.

(4) مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية، دراسة تحليلة وتربوية، د/ طلعت عفيفي، ص٣، ط. الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

أوجه هذا التأثر في مظهرين هما:

"المظهر الأول: كانت القصة الهادفة إحدة وسائل محمد في الإقناع".

المظهر الثاني: لجوء النبي ﷺ إلى الأسلوب القصصي في بعض أحاديثه، وترك لنا مجموعة من القصص البناء في شتى موضوعات الدعوة، بحيث اعتبر هذا القصص في المنزلة الثانية بعد قصص القرآن الكريم"[١].

ولقد حصر لنا الدكتور / محمد حسن الزير من مصادر الحديث الشريف[٢]، ما يقرب من تسع وثلاثين ومائة قصة[٣].

ولقد أدرك الرسول ﷺ "ما للقصة من تأثير ساحر على القلوب، والميل الفطري لها، لأن القارئ للقصة وسامعها لا يملك أن يقف موقفاً سلبياً من شخوصها وحوادثها .. ويتخيل أنه كان في هذا الموقف، أو ذاك، ويروح يوازن بين نفسه وبين أبطال القصة، فيوافق أو يستنكر، أو يملكه، لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم".

الإعجاب ، والإسلام يدرك ذلك فيلجأ إلى القصة لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم"[٤]، وهذا ما أكده علماء النفس[٥]، ولقد تميز قصص النبي ﷺ

---

(١) ينظر: مختارات من القصص النبوي، ص/٣ (بتصرف).

(٢) هي: موطأ مالك، ومسند أحمد، وصحيحا البخاري ومسلم، وسنن النسائي، وأبي داود، والترمذي، وابن ماجة، وسنن الدرامي.

(٣) ينظر: مراعاة حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، ص/٢١٦ نقلاً من القصص في الحديث النبوي، ص/٤٨٦، ٤٩٩، ٥١٣، دراسة بلاغية تحليلية د/ يوسف العليوي ط.١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، مكتبة الملك فهد للطباعة والنشر.

(٤) يراجع: منهج التربية الإسلامية، د / محمد قطب، ص/٢ ط١٤،

(٥) ينظر: الحديث النبوي وعلم النفس، ص/١٧٣، وينظر علم النفس وقضايا العصر، د/ فرج عبد القادر طه، ص. ١٩٥ط. عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

بالتشويق والإمتاع .. وجانب الإيحاء والرمز[١].

ولقد مدح الدكتور/ محمد رجب البيومي القصص النبوي لاحتوائه على التصوير والتلوين حيث يقول: "إن محمداً جعل الأقصوصة من عدده التي يغزو بها المشاعر، ويعبئ النفوس إنما اعتمد على سلاح قوي ونفاذ، وقد أجاد استعماله بما أبدع في قصصه من تصوير وتلوين"[٢].

"والمتأمل للقصص النبوي ليلاحظ وجود موضوعات عدة تناولها الرسول ﷺ في قصصه غير أن هذه الموضوعات يضمها نسيج واحد هو (الاتجاه الديني) فليس القصص الذي ورد عن النبي ﷺ قصصاً للتسلية" أو "التندر"[٣].

ثانياً: تعريف الطباق وقيمته البلاغية:

الطباق: ويسمى بالتضاد والتطبيق والتكافؤ والمطابقة والمقاسمة[٤].

الطباق لغة: الموافقة[٥]، يقال: طابق البعير في مشيه إذا وضع خف رجله موضع خف يده. ومنه قول الجعدي:

وخيلٍ تطابق بالذّراعين طِباقَ الكِلاَبِ يطأن الهِرَاسَا[٦].

---

(١) الحديث النبوي رؤية فنية وجمالية د / صابر عبد الدايم، ص ٧٧ (بتصرف) ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٢) من البيان النبوي ص/١٣٢.

(٣) قصص القرآن، د / محمد علي قطب، ص ٤، المكتبة العصرية -صيدا- بيروت.

(٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د / أحمد مطلوب، ج.٣ ص/٧٦، ط. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مطبعة المجمع العلمي العراقي.

(٥) ينظر: الألوان البديعية، د / حمزة الدمرداش، ص/ ٤٣، ط.٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٦) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ح/ عبد السلام، هارون، حـ.٣م٤٣٩، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط. أولى، ١٣٦٦، وتحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم ح/ حفني شرف، ص ١١١، ط، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٣هـ.

واصطلاحاً هو: "الجمع بين المتضادين" أي: معنيين متقابلين في الجملة"[١].

أو هو: "الجمع بين الشئ وضده"[٢]، "كالليل والنهار، والسواد والبياض"[٣].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه لا توجد علاقة بين الطباق في اللغة والاصطلاح، لأن "اللغوي يفيد الموافقة بين الأشياء، والاصطلاحي يجمع بين الأمور المتضادة، والمعاني المتقابلة"[٤].

وذهب البعض الآخر إلى وجود المناسبة، وهذا هو الراجح والذي تميل إليه النفس، وذلك، لأن "المتكلم قد وفق بين المعنيين المتقابلين .. على أن يقعا في جملة واحدة مع ما بينهما من البعد والتضاد"[٥].

بلاغة الطباق:

الطباق له مكانة عالية ورفيعة في البلاغة حيث "يجمع المعاني المتضادة، ويؤلف بينها في أسلوب واحد فتبدو متجاورة ومتآخية ... وهذا كله يعمق الفكر، ويثير الشعور، ويجعل الذهن يبحث عن الأسباب والمعاني والأفكار، وفي هذا نشاط وجداني"[٦].

---

(١) ينظر: الإيضاح ٣٨٦/٤ "ضمن شروح التلخيص".

(٢) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تح / محمد رشيد رضا، ص ١٥، دار المطبوعات للطباعة والنشر والتوزيع، علم البديع نشأته وتطوره من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ، د /عبد الرازق زايد، ص ٣٣، مكتبة الانجلو المصرية، ط. ١٩٧٧م.

(٣) زهر الربيع في شواهد البديع لمناصر الدين محمد بن قرقماش تح مهد أسعد عرار، ص ١٢٩، ط. دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ١٩٧١م.

(٤) الألوان البديعية، ص/ ٦٦.

(٥) ينظر: المرجع السابق، ص/٤٣، وعلم البديع، د/ بسيوني، فيود ص ١٣٩.

(٦) الألوان البديعية، ص/٦٣.

ولقد أشاد الإمام عبد القاهر الجرجاني بالطباق وجعله محموداً إذا استدعاه المعنى وجاء عفوياً وتطلبه المقام فيقول: "أما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب"(١).

"والطباق يؤكد المعاني ويقررها عند المخاطب"(٢).

"فالطباق والمقابلة من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع إذ الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكره ضده.

فالطباق والمقابلة من وادي تداعي المعاني حين تنتقل النفس من النقيض إلى النقيض، ومن الضد إلى الضد، فتتضح المعاني، وتتمكن في النفس، لأنها تقرن بأضدادها"(٣).

"وما فيهما من المفاجأة وكسر العادة، ... فينتقل فيها من موقف إلى موقف آخر مضاد، مما يخلق نوعاً من التوتر والنشاط، فتنبسق من ذلك دلالات واسعة، ويفتح آفاق الإيحاء والخيال"(٤).

أما إذا نظرنا إلى قيمة الطباق والمقابلة في القصص النبوي، فنجد أنهما قد أضفيا على المعنى جمالاً، وجعلاه أكثر تشويقاً وإثارة، ووردا عفويين، "حيث يقترنان

---

(١) أسرار البلاغة، ص/٤.

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ عز ا لدين السيد، ص/٣٣٩، دار اقرأ ط.١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. دار إقرأ.

(٣) الألوان البديعية، ص / ٦٣.

(٤) النسق البلاغي للكلم النبوي إعداد. / عبد الهادي الدحاني، ص ٣٣٩، بحث منشور بمجلة ندورة الدراسات البلاغية بين الواقع والمأمول بكلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود لإسلامية، ط. ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م.

غالباً بالجمل ذات صلة بالمشاعر والتشريعات، ونلاحظ .. أن غايتهما في كل الأحوال تجسيد المعنى وتجسيمه ليكون راسخاً في ذهن المخاطب، وواضح الدلالة في عقله ووجدانه، فضلاً عما يحققاه من إيقاع موسيقي يضفى لمسة جمالية على التعبير النبوي(١).

والطباق: "قد يكون بلفظين من نوع احد اسمين:وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ سورة الكهف: ١٨" أو فعلين " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، " سورة آل عمران : ٢٦ " .. وقول النبي ﷺ (إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع) (٢).

أو حرفين " لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ"البقرة: ٢٨٦". أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣)، "الأنعام: ١٢٢".

---

(١) ينظر: مدخل إلى البلاغة النبوية، ص/ ١٦٩ (بتصرف).

(٢) الألوان البديعية/ ٥٠.

(٣) الإيضاح ٢٨٩/٤، "ضمن شروح التلخيص"، وينظر: علم البديع، د / عبدالعزيز عتيق، ص/ ٦٦، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط. ١٩٧٤م.

أنواع الطباق:

ينقسم الطباق من حيث الإيجاب والسلب إلى قسمين:

١- طباق الإيجاب هو: "أن يكون اللفظان المتقابلان معناهما ذكرا موجبين كما مر[١] وسالبين (أي منفيين) معاً مثل: وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ [٢] فاطر: ١٩ - ٢٠

٢- طباق السلب هو: "الجمع بين فعلي مصدر أحدهما مثبت والآخر منفي أو في حكمهما كالأمر والنهي، مثل وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ، الروم: ٦، ٧" . والثاني نحو" إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ [٣]، "المائدة: ٤٤".

هذا وللطباق أنواع أخرى، لا داعي لذكرها، لإننا لا ندرس الطباق باعتبار أقسامه، وأنواعه في القصص النبوي، ولكننا ندرس الطباق ومدى أثره على السياق والمعنى، "فلا نقف عند اللون بشخصه، ... بل يتجاوز ذلك إلى ما في السياق من خصائص للتراكيب ودلالات للمعاني، ومزايا الألوان البلاغية الأخرى ... فلا بد من تجليتها وإبرازها، "فيتجلى الطباق الذي يتبعه، .. ويبرز ما

---

(١) مواهب الفتاح ٤/٢٩٠، "ضمن شروح التلخيص" دار البصائر.

(٢) الألوان البديعية، ص ٥٠.

(٣) ينظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، حـ٤. ص ٣٩٠، ٢٩١، "ضمن شروح التلخيص"، دار البصائر، وينظر: تحرير التحبير/ ١١٤.

وراء الطباق من جمال وحسن اقتضاه المقام، ومن خلال الوقوف على ما في التراكيب وسياقاتها من خصائص وأسرار بلاغية، وذلك لأنه لا يمكن الفصل بين ألوان البلاغة لما بينها من رباط "ووشائج"[1].

خصائص الطباق في القصص النبوي:

يأتي الطباق في الحديث النبوي الشريف،وخاصة في القصص "ليستوعب الحكم للمقابلات، وذلك ظاهر الشأن في التقرير، أو يستعمل لتقابل الحكمين إظهاراً وإيضاحاً لكل من المقامين ترغيباً بأحدهما، وترهيباً بالآخر، وشرية الشر تؤكد خيرية الخير بالمفهوم، فضلاً عن اقترانها بها في الذكر، فليس الطباق مجرد تحسين للكلام في حديثه ﷺ ، ولا لهو من لهو الفارغين به، فهو حُسْنُ طبيعي غير مقصود لذاته"[2].

ذكر المعاني المتضادة يأتي لأغراض بلاغية بحسب المقام ومن ذلك تأكيد المعنى وتقريره وتمييزه وذكر ضده، فإن إبراز الضدين في الجملة يبعث إلى تأمل الضد ليكشف عمن خفايا الضد الآخر، ويعمق معناه في النفس، ويزيد من الإحساس به"[3].

---

(1) ينظر: من بلاغة النظم القرآني، دراسة بلاغية تحليلية لمسائل معاني البيان والبديع في آيات الذكر الحكيم، د/ بسيوني فيود، ص ٣٣٠، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(2) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص ٣٣٩. (بتصرف).

(3) ينظر: المرجع السابق، ص ٣٣٩ (بتصرف).

القصة الأولى

أصحاب الغار

بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا. فَقَالَ أَحَدُهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَىَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلاَبِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ[1] عِنْدَ قَدَمَىَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الثَّانِي اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ، أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الْخَاتَمَ. فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً. وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي. فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ، فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي، وَأَعْطِنِي حَقِّي. فَقُلْتُ اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا. فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِي. فَقُلْتُ إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرَاعِيَهَا. فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ

([1]) يتضاعون عند قدمي: أي يصيحون من الجوع، ينظر: رياض الصالحين، جـ١، ص ٩، ١٠ "باب الإخلاص".

ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ[1].

لقد أمر الله سبحانه وتعالى الأبناء أن يبروا آبائهم ويطيعونهم، فإن ذلك يكون سبباً في تفريج الكربات، وشكراً لهما على ما قدماه لهم في حالة صغرهم ، من السهر على حمايتهم والتعب في تربيتهم ورعايتهم.

ولذلك جعل الله –تعالى– بر الوالدين في الرتبة الثانية بعد عبادته، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ "سورة النساء: ٣٦".

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾"سورة لقمان: ١٤"، وغيرها من الآيات التي تدل على أهمية البر بالوالدين والعطف عليهما.

والرسول ﷺ لم يرد أن يؤكد للصحابة على بر الوالدين بطريقة تقريرية، وإنما صور لهم ذلك عن طريق القصة مشهداً محسوساً ، ليثبت لهم ذلك المغزى من خلال قصة هذا الرجل، الذي أطاع والديه في حالة كبرهما، والحرص على سقي والديه اللبن، بالرغم من احتياج وصراخ وبكاء أبنائه، ولقد لعب الطباق النبوي في هذا دوراً كبيراً حيث وظفه الرسول ﷺ في تلك المناجاة، للتأكيد على أن ذلك الرجل

---

(1) قد روي بروايات عدة مع تغييرات طفيفة، ينظر صحيح البخاري، دار ابن كثير – دمشق– بيروت. ط أولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ينظر: كتاب الآدب، باب إجابة دعاء من بر بوالديه" رقم الحديث ٥٩٧٤، ص ١٥٠٢، وينظر: كتاب الإجارة ، باب من استأجر أجير فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد، رقم الحديث ٣٣٧٣، ص ٥٤٢، ٥٤٣، كتاب البيوع إذا اشترى لغيره بغير إذنه فرضى رقم الحديث ٣٣/٥، ص ٥٢ كتاب أحاديث الانبياء "باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ص ٨٥٨، رقم الحديث ٣٤٦٥، كتاب المزارعة باب "إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم وكان في ذلك صلاح لهم، رقمه ٣٣٣، ص ٥٦١.

قد بر والديه، وأنه قد راعى الحالة الجسدية والنفسية لوالديه، فالجسدية تتمثل في الطباق الأول الوارد بين قوله ﷺ (شيخان كبيران) وبين قوله ﷺ : (صبيان صغيران) فأكد على بره لوالديه ومدى كبرهما وضعفهما، واحتياجهما إلى الرعاية والعطف، ودعى الطباق إلى المقارنة بين حالة الوالدان، وحالة الأبناء، لأنهما مقترنان في الذهن، إذ أنه يعمل على المقارنة بينهما وشد الانتباه، مما يؤكد على إيثار الرجل لوالديه على أبنائه، بالرغم من احتياجهم لهذا اللبن، ولقد ساعد الطباق على التأكيد –أيضاً– الوصف الوارد في الضدان (كبيران) و(صغيران) للتأكيد على بره بوالديه، والمقارنة بين حالة الاثنين.

والطباق الثاني قد راعى الحالة النفسية للوالدين الواقع بين قوله ﷺ : "أوقظهما" وبين "تومهما" للتأكيد على أنهما كانا مستغرقين في النوم، ومدى معاناته وتحمله المشقة، وشدة تماسكه وعزمه على سقي والديه اللبن قبل أبنائه، والطباق –أيضاً– أكد لنا أن بر الرجل لوالديه كان في تلك الحالتين سواء ، لأن الطباق اختصر لنا المسافة بينهما، وكأنهما اجتمعا في الذهن في وقت واحد، إذ إن الضد يستدعي الضد، فانتقل الذهن من الإيقاظ إلى النوم، مما أكد على نوم هذين الوالدين، وبره قد شملهما في كلتا الحالتين. وهذا ما أفاده التعبير بالفعل المضارع (أوقظهما)، للدلالة على التجدد واستحضار الصورة.

ولقد صور لنا صاحب البيان النبوي – جمال – هذه المناجاة لما احتوت عليه من الإيحاء النفسي ودقة التصوير فقال: "تكلفت المناجاة بإيضاح ما كان، وجاء التعبير دقيقاً بإيحائه النفسي، فالوالدن يغطان في النوم، والابن قائم على رأسيهما، والصبية يتضاعون! أي مقابلة نفسية كبيرة بين بكاء الأطفال وتصير الوالد وتماسكه حتى يستيقظ الوالدان ! وهنا –أيضاً– فهم الهدف الخلقي من مراعاة حقوق الوالدين تأثير سليم لم ينبع من الوعظ، ولكن في رسم المشهد أدق

تصوير"[١]. وارتفعت النفوس إلى عوالم الحق والخير والجمال وفي ذلك إقناع للعقل وإمتاع للوجدان"[٢].

ورشح الطباق السجع[٣] على التأثير والتناغم الفنى ، الوارد وبين قوله كبيران) و (صغيران)، وبين (أوقظهما) و(نومهما)، إذ أن حرفي النون والميم فيهما غنة إذ يخرجان من الخيشوم، فلقد ساعدا على التناغم وقوة التأثير لأن كلا منهما يخرج من الخيشوم وجهريتان[٤].

أما الطباق النبوي في القصة الثالثة قد جاء بين قوله ﷺ : (لا تظلمني) وقوله: (أعطني حقي) وهو طباق سلب، حيث وقع بين النهي والأمر، فالطباق قد أكد على إعاء الرجل حقه الذي تركه قبل ذلك من الرجل الذي استأجره قبل ذلك، لأن نفي الظلم ، يؤكد على إعطائه حقه وأخذه منه، إذ الطباق قد دعى إلى التأمل في الطرف المنفي، وأكد على الطرف المثبت، لأن الطباق يعمل على تداعي المعاني، والمقارنة بين الطرفين المتقابلين، وأنهما ليسا سواء وأنهما متغايران، فعدم إعطاء ذلك الرجل حقه يُعد من الظلم.

وبذلك يكون الطباق قد استطاع أن يجسد المعنى ويصوره بصورة منفرة حيث –دعا الرجل إلى المسارعة بأداء الأمانة وعدم الخيانة، والمسارعة إلى دفع المال، وعدم فعل ذلك سيؤدي إلى غضب الله وعقابه، وأن إعطاء الحقوق للناس وصيانة الأمانات، يكون سبباً في تفريج الكربات، بدليل أن الصخرة قد انفرجت

---

(١) من البيان النبوي، ص/ ١٣٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٣) السجع هو: توطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد أو على حرفين متقاربين أو حروف متقاربة ينظر: علم البديع د / بسيوني، ص/ ٣٨٩.

(٤) ينظر: كفاية المريد في علم التجويد لمحمود حافظ برانق ص/ ٣٤، ط. ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

تماماً بعيدة عن الغار، والفور بالجنة والثواب.

والطباق أيضا ساعد على الإيجاز والاختصار، حيث قيل (أعطني حقي) ولم يبين نوع هذا الحق ولقد آزر الطباق على التناغم الموسيقي وشدة التاثير، السجع بالياء بين قوله: (تظلمني) وقوله: (أعطني) وأن الياء في الأولى أفادت الغلظة، وفي الثانية أفادت اللين، لأن حرف الياء حرف جهري ولين وبه غنة، إذ يخرج من الخيشوم[١].

ولقد استجاد الدكتور / محمد رجب البيومي هذه القصة والمناجاة، لصياغتها القوية، وأنها أشادت بمبادئ الرحمة والعفة والحق والإنصاف[٢].

---

(١) ينظر: كفاية المريد في علم التجويد، ص/ ٣٤.

(٢) ينظر: من البيان النبوي، ص/ ١٣٣ (بتصرف يسير).

القصة الثانية

التوبة

٣٤٧٠ ـ حدّثنا محمدُ بن بشارٍ حدَّثنا محمدُ بن أبي عديٍّ عن شعبةَ عن قَتادةَ عن أبي الصدِّيقِ الناجِيِّ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «كان في بني إسرائيلَ رجُلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ إنساناً ، ثم خَرجَ يَسألُ ، فأتى راهِباً فسألهُ فقال له: هل مِن تَوبة؟ قال: لا ، فقتله. فجعلَ يَسأل ، فقال له رجلٌ: ائتِ كذا وكذا ، فأدركهُ الموتُ فَناءً بصَدرِهِ نحوَها ، فاختصمَتْ فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب ، فأوحى اللهُ إلى هذهِ أنْ تَقرَّبي ، وأوحى اللهُ إلى هذهِ أن تَباعَدي ، وقال: قِيسوا ما بينهما ، فوُجِدَ إلى هذهِ أقربَ بِشبر ، فغُفِرَ له». (٣)

لا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ :إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ , فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ ,فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ,قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى[٢] بِصَدْرِهِ) [٣].

---

(١) كتاب حديث الأنبياء، باب "ما ورد عن بني إسرائيل" رقم الحديث ٣٤٧٠ ص ٨٦٠ .

(٢) ناء بصدره: أي نهض، ويحتمل أنه بمعنى نأى أي بعد، ينظر: النهاية في غ ريب الحديث، جـ٥، ١٢٣.

(٣) ينظر: صحيح البخاري، كتاب حديث الأنبياء، باب "ما ورد عن بني إسرائيل" رقم الحديث ٣٤٧٠، ص ٨٦٠.

لقد حث الله سبحانه و-تعالى- عباده إلى المسارعة إلى التوبة، وذلك حينما تكثر ذنوبهم وتنقل، ولكي يعلموا دائماً أن الله – تعالى- هو الذي يستطيع أن يغفر لهم ذنوبهم مهما كثرت، فباب التوبة مفتوح دائما أمام عباده حتى تطلع الشمس من مغربها.

فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، "الزمر: ٥٣". وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، "البقرة: ٢٢٢".

ولقد بين النبي ﷺ -أيضًا- أن "للذنوب آثاراً ظلمانية، وأن لها تأثيراً خطير على القلوب، ولذلك حث النبي ﷺ العبد المسلم إذا وقع في ذنب حثه على المبادرة إلى التوبة والاستغفار قبل أن تتفاقم على القلب، وتتراكم عليه"[1]، ففي هذا الحديث يحكي لنا الرسول ﷺ قصة ذلك الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، فظن أن باب التوبة مغلق أمام عينيه، فرحل من أرضه ليسأل هل له من توبة؟ فأجابه الراهب بـ ﷺ فقتله أكمل مائة نفس، ثم رحل إلى عالم فقيل: هل من توبة؟ فقال: "ومن يحول بينه وبين التوبة" فأمر أن يرحل إلى أرض صالحة، ويفارق أرض قومه السيئة، ثم قبض في وسط الطريق، فاختصما في شأنه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: إنه كان عازماً على التوبة، وملائكة العذاب قالت: إنه لم يعمل خيراً قط، فأرسل الله ملكاً في صورة آدمي فجعلوه يحكم بينهم فقال لهم قيسوا ما بين الأرضين فإي أيتها كان أقرب فهو له، فقبضته ملائكة الرحمة.

لقد اشتمل الحديث الشريف على طباقين أكدا على الحث على التوبة في أجمل تصوير والمسارعة إلى التوبة والاستغفار، وهما: الطباق بين قوله ﷺ :

---

(1) الهدى النبوي والإرشادات المحمدية إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأداب السنية بقلم / عبد الله سراج الدين، ص /١٠١.

(انطلق إلى أرض) وبين قوله ﷺ : (لا ترجع إلى أرضك) وهو طباق سلب، حيث وقع الطباق بين (الأمر) (انطلق) وبين النهي (ولا ترجع)، مما أكد على عدم استواء الأرضين، ودعا إلى المقارنة بينهما والموازنة من خلال هذين الضدين، فإن نهيه عن الرجوع إلى أرض قومه السيئة، فيها تأكيد على ذهابه إلى الأرض الصالحة، والمسارعة إلى ما يرسخ التوبة ويقرب إليها، كما أن الطباق عمل على تقريب المسافة بين الأرضين، وكأنهما اجتمعا في الذهن في وقت واحد، لأن الطباق يعمل على تداعي المعاني، فينتقل الذهن من الضد إلى الضد، والضد يُظْهِر حُسنه الضد، وبيَّن الطباق أن "علاج التوبة شاق"[1]، وليس سهلاً، كما أن الطباق يشى إلى بالأمل في النجاة من العذاب والفوز بمغفرة الله تعالى ورضوانه، فيتخلص من الشعور بالذنب أما الطباق الثاني بين قوله ﷺ : (ملائكة الرحمة) و(ملائكة العذاب) أيضا يؤكد على قبول الله توبته، لأنه أخلص في توبته، وفضَّل التوبة وأن الله واسع المغفرة، ولذلك قدم ملائكة الرحمة على ملائكة العذاب، وكانت نهاية الحديث دالة على ذلك حينما قال: "فقبضته ملائكة الرحمة" كما أن الطباق بين أيضاً عدم استواء (ملائكة الرحمة) (ملائكة العذاب)، إذ أن ملائكة الرحمة من شأنها الرحمة والرقة والعطف فالرحمة تعني (الرقة والعطف)، ودخول الجنة، و(ملائكة العذاب) كانت عكس ذلك، لأن من شأنها التعذيب والقوة ودخول النار.

فالطباق جسد تلك المعاني وجعلها مشاهدة ومحسوسة، وهذا ماأعجب الدكتور / محمد رجب البيومي في هذه الأقصوصة أنها صيغت بألفاظ واضحة ومعبرة، وجسمت فداحة الجرم وهول الذنب حيث يقول: "فهذه الأقصوصة تمثل فضل الله وسعة عفوه، وعظيم صفحه عن المذنبين، فهي تأكيد بالغ لقول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

(1) الحديث النبوي وعلم النفس، ص ٣٤٦.

جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، "الزمر: ٥٣" وليس الأمر اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولا قياس مساحة الأرض ليعلموا إلى أي الناحيتين كان الميت أقرب !!! إنما كان ذلك كله تجسيما لفداحة الجرم وهول الذنب ! وأي ذنب أكبر من أن يقتل الإنسان مائة إنسان!! ثم تأتي بعد ذلك التوبة الخالصة يتبعها عفو الله.. قد صيغت بألفاظ معبرة، فأحسنت الأداء عما يريده الرسول من معنى، ثم صورت التوبة المقبولة بعد الجرم الفادح أتم تصوير!!" [١].

(١) من البيان النبوي، ص/ ١٤٠.

القصة الثالثة

الرجاء والخوف

عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ رجل لم يعْمل حَسَنَة قطّ لأَهله: إِذا مَاتَ فحرقوه ثمَّ اذروا نصفه فِي الْبر وَنصفه فِي الْبَحْر، فوَاللَّه لَئِن قدر الله عَلَيْهِ ليعذبنه عذَابا لَا يعذبه أحداً من الْعَالمين. فَلَمَّا مَاتَ الرجل فعلوا مَا أَمرهم، فَأمر الله الْبر فَجمع مَا فِيهِ، وَأمر الْبَحْر فَجمع مَا فِيهِ، ثمَّ قَالَ: لم فعلت هَذَا؟ قَالَ: من خشيتك يَا رب، وَأَنت أعلم. فغفر لَهُ) [1].

يبين لنا الرسول الكريم في هذه القصة القصيرة أن الرجل حينما يخاف من عقاب الله، لأنه لم يعمل خيرا قط، ويرجو عفوه وغفرانه، فإنه يوصي أولاده قبل موته أن يحرقوه، ويلقوا بنصفه في البر، والنصف الآخر في البحر، ظناً منه أنه بذلك "سينجو من مقابلة الله ومحاسبته ... ولكن المفاجأة تتم وأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه ... قال من خشيتك وأنت تعلم ... فغفر له"[2].

اجتمع في هذا الحديث الشريف طباقان: أحدهما: الطباق بين (الحياة) و(الموت) وأكد الطباق على قرب موت ذلك الرجل، لأن الطباق جعل النقيضين كأنهما اجتمعا في وقت واحد، ليس بينهما مسافة ووقت، والطباق ساعد على تداعي المعاني والتناسب بينها، لأنه حينما ذكر الحياة تطرق الذهن إلى فكرة الموت، لأن الضد أقرب خطوراً بالبال، فرسخت الفكرة وتجسدت أمام الإنسان.

والطباق الآخر: وقع بين قوله ﷺ (البر) و(البحر) ليؤكد على عدة معان ؛ لأن الطباق يعمل على تداعي المعاني منها مدى خوف ذلك الرجل ومدى

(1) ينظر: مختصر صحيح مسلم، حـ٢، ص ٥١٣، ٥١٤.

(2) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، ص/٤٠٥.

سيطرته عليه، لأنه لم يعمل خيراً قط حتى أنه أمر أولاده بذلك، ومع ذلك كان هذا الرجل طامع في غفران الله، وأيضاً – أكد الطباق على قدرة الله الشاملة والمحيطة بكل شئ، حيث أن الله جمع عظام ذلك الرجل بالرغم من تفرقها في البر ولبحر، لأن الله هو الذي خلقه، وهو القادر على إعادته مرة أخرى .

والطباق جسد المعنى الغيبي الذي سوف يحدث يوم القيامة بطريقة محسوسة ومشاهدة.

فالرسول ﷺ أكد لنا من خلال هذه الطباقات على خاصية التوسط بين الرجاء والخوف والغفران لذلك الرجل وهذا ما أكده علماء النفس يقول صاحب الحديث النبوي وعلم النفس: "كان من الضروري أن يصاحب الخوف من عذاب الله، الرجاء في رحمة الله فهذا من شأنه أن يخفف من شدة الخوف إلى الدرجة المعقولة .. فمزيج منهما يمد الإنسان بطاقة دافعة توجهه إلى سلوك الطريق المستقيم[1].

(1) الحديث النبوي وعلم النفس، ص/٤٠٥.

القصة الرابعة

الابتلاء والشكر

أخبر عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة – رضي الله عنه– حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ وَقَالَ الْآخَرُ الْبَقَرُ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ فَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ قَالَ فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا وَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ لَهُ إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ

بَصَرِي وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي فَخُذْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ) (١).

"القصة النبوية تقدم لنا أحداثها من خلال تشويق أو سرد، يجعلنا نتابع ما جرى للشخصيات الثلاث، التي انتقلت من حال إلى حال، وانعكس على سلوكها وتصرفاتها، وموقفها من نعمة الله وفضله عليهم .. فتكشف أن الأبرص والأقرع والأعمى يمثلون ثلاث حالات، كلها كانت من واقع لا يسر، فأشكالهم قذرة بسبب الأمراض والعاهات التي يعانون منها، مما يبعد الناس عنهم بالإضافة إلى الفقر الذي يجعلهم في وضع غير طيب اجتماعيا وإنسانياً يمر الملك عليهم ويسألهم عن أحوالهم، فيحكي كل منهم على وضعه وأمله ورغبته أن يتخلص من مرضه أو عاهته، وأمنيته أن ينتقل إلى الغنى واليسار، ويتحقق لهم كل ما يتمنونه، ويمنحهم ما يجعلهم أغنياء بعد وقت قصير، هذا ناقة عشراء، وذا بقرة حامل، وذاك شاة ولدا، ويُشفى كل منهم من مرضه أو عاهته، ويغتني، وتبدأ المرحلة الثانية من القصة، حيث يمر عليهم الملك في صورة السائل المحتاج، يسأل كلا منهم المساعدة، ولكنّ الأول والثاني يرفضان المساعدة، ويتعلان بالتزامات مادية ويزعمان أنهما كسبا أموالهما بالجهد أو الوراثةن فيذكرهما بما كانا فيه، ولكنهم ينكران، فيدعو عليهما أن يصيرا كما كانا عليه إن كانا كاذبين.

أما الثالث: وهو الأعمى، فيتقبل سؤال الملك بصدر رحب، ويعترف بفضل الله عليه، فقد رد بصره بعد عمى، وأغناه بعد فقر، ويأمر السائل أو (الملك) أن يأخذ من أغنامه ما شاء، وهنا يقول الملك: أمسك مالك، ويكشف عن حقيقة

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل" حديث أبرص وأعمى وأقرع، ص ٨٥٧، ٨٥٨، رقم الحديث ٣٤٦٤.

الابتلاء الذي كان نتيجة رضا الله عنه، وسخط على صاحبية[١].

قد تم توظيف التناقض بين الشخصيات المتقابلة[٢]، في النص النبوي- حيث- "تتكشف الأحداث عن نفسية جاحدة للأبرص والأقرع، ونفسية مؤمنة للأعمى،.. والحق أن القصة تركتنا تخيل ما آل إليهما كل منهم، فلم تغلق القصة الباب وتوضح ما آل إليه حال الجميع .. فرجع للأبرص والأقرع نقضتهما وفاقتهما وزاد عليه سخط الله، بينما رضي الله عن الآخر بسبب شكره . [٣]

فقد تناقض موقف الأعمى في مقابل موقف كل من الأبرص والأقرع، "إذ رسمت لكل شخصية من هؤلاء الثلاثة صورتين متقابلتين، بينهما من الفرق ما بين السماء والأرض من أبعاد، وبتأمل الصورتين المختلفتين يتجلى، فضل النعمة وهول النقمة[٤].

ولقد ساعد التقابل على وجود السرد[٥] القائم على التشويق والإثارة، في "متابعة أحوال الشخصيات الثلاث، ومواقفها المختلفة، وتحولاتها من العاهة إلى السلامة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الطلب من الله إلى الاعتراف بفضله أو التمرد على النعمة".

ولقد ذكر الدكتور / محمد لطفي الصباغ إلى أن التقابل في الحديث والسجع والموازنة كان لهم أثر كبير في موسيقى الكلام وشدة التأثير والإقناع، حيث يقول:

---

(١) ينظر: مدخل إلى البلاغة النبوية، د / حلمي قاعود، ص/ ١٨٨.

(٢) ينظر: الأنوار الجلية في البلاغة النبوية، ص ٢٧٨.

(٣) ينظر: الأنوار الجلية في البلاغة النبوية ، ص ٢٧٧.

(٤) من البيان النبوي، ص / ١٣٥.

(٥) السرد هو: نقل الأحداث والمواقف من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية تجعل القارئ يتخيلها وكأنه يراه بالعين ينظر: التحرير الأدبي د/ حسين علي محمد، ص/٣٩٩، مكتبة عكيبان، ط.٢، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٠م.

"للموازنة والتقابل في الجمل أثر كبير واضح في موسيقى الكلام، ذلك أن الكلام عندما يكون مقسماً فإنه يتيح للقارئ أن يجعل صوته موزعاً، بين جزئين، فتكون فقرات الجملة المتقابلة مؤدية لحناً معيناً يعطي الكلام الموسيقي الجميلة"(١).

ولقد أتى – أيضاً – التقابل بالتضاد في نهاية القصة في قول الملك: "لقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك" لتؤكد لنا تلك المعاني السابقة، والتأكيد على الخلق الحسن، وهو الشكر في حال النقمة والنعمة على السواء، فقد قابل بين (الرضا وعن) بـ (السخط وعلى) فقد دعا التقابل والتضاد إلى المقارنة بين حال هؤلاء الثلاثة، بالرغم من تشابه ظروف كل منهم في الفقر والمرض، وعدم استوائهم في الفضل لأن السخط خلاف الرضا(٢)، لأن الرضا ناله من اعترف بفضل الله وإنعامه، وحلول غضبه على من نسيه ولم يشكره، وهذا يؤكد على أن الابتلاء بالخير قد يكون أشد من الابتلاء بالشر، فالأبرص والأعمى قد نسيا الله في حال غناهم، وجحدا بفضله، فلم يتصدقا من مالهما شكراً لله، وأكد التقابل على شكر الأعمى لله حيث بادر بشكره بإعطاء الصدقة، فحقيقة الشكر تقتضي "أن تعرف أن لا منعم إلا الله تعالى، ثم تعرف تفاصيل نعمه عليك في أعضائك وجسدك وروحك، وجميع ما تحتاج إليه، ثم تخوض في العمل بموجبه، وذلك بالقلب واللسان وسائر الجوارح"(٣).

وجحود كل من الأبرص والأقرع فنالهم السخط، ولقد ساعد التقابل على الجمع بين الاثنين في وقت واحد، فانتقل الذهن من الرضا على الأعمى إلى السخط

---

(١) الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته، كتبه د / محمد لطي الصباغ، ص/٨١، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

(٢) فقه اللغة للثعالبي، ص ١٧٢، مطبعة الآباء اليسوعيين– بيروت، ط ١٨٨٥م.

(٣) مختصر إحياء علوم الدين اختصره أبو حامد الغزالي تحقيق/ أحمد عبد الرازق البكري، ص / ٢٤٨، ط. "١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م" دار السلام للطباعة.

على الأبرص والأقرع، وبذلك تأكد المعنى الذي أراده الرسول ﷺ وهو الشكر والاعتماد على الله في السراء والضراء.

وتأتي بلاغة الرسول النبوية في اختياره للتعبيرات حيث عبر في جانب (الرضا) بـ (عن) وفي جانب (السخط) عبر بـ (على) [1]، وذلك لأن (عن)[2]، تفيذ النفع والانتفاع والمجاوزه، و(على) تفيد الضرر والمجاوزة والتعليل، حيث كان جزاء الأعمى هو الرضا وثواب الله، بينما كان جزاء الأبرص والأقرع هو السخط فهو ضار لصاحبه، وكان جزائهما النار وغضب الله عليهما.

(1) ينظر: معاني الحروف للمرادي د / فخر الدين قباوة، ص / ٧٦.

(2) ينظر: الجني الداني في المرجع السابق، ص / ١٤٩.

القصة الخامسة

الرحمة بالحيوان

قال ﷺ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ[1] يَأْكُلُ الثَّرَى[2] مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ، حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لأَجْرًا ؟ فَقَالَ : " فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) [3].

لقد أراد الرسول ﷺ ن يعلم الصحابة، والمسلمين جميعاً فضل الرحمة بالحيوان والرفق به، عن طريق سرد قصة سريعة، وهي أنه كان رجل يمشي في الصحراء، فاشتد عليه العطش فوجد بئراً، فنزل وشرب، ثم بعد ذلك راي كلباً، فبدأ يقارن بين حاله وحال ذلك الكلب، فأخذته الشفقة به فنزل البئر مرة أخرى وملأ خفه، فسقاه وأخذ يكرر هذه العملية، حتى وصل الكلب إلى الري، فما كان جزاؤه إلا أن جزاه الله على ذلك بالغفران، وهذا ما أكدته نهاية القصة (إنا لنا في البهائم لأجراً)؟ فأجاب "إن في كل كبد رطبة أجر".

ولم يفعل الرجل ذلك الصنيع إلا بوازع إيماني خالص، دعاه إليه صلاح

---

(1) لهث: لهث الكلب وغيره يلهث لهْثا إذا أخرج لسانه من شدة العطش والحر، ينظر: النهاية في غريب الحديث ٤/ مادة لهث وينظر: مقاييس اللغة، حـ٤، ص ٣١٤ مادة "لهث".

(2) ثرا: أي التراب الندى النهاية في غريب الحديث حـ١، ص ٣١١، مادة "ثرا".

(3) ينظر: صحيح البخاري، كتاب المسافاة، باب طفضل سقي الماء، رقم الحديث ٢٣٦٣، كتاب المظالم ، باب الآبار على الطريق إذ لم يتأذ بها" رقمه ٣٤٦٦، ص/ ٥٩٦، وفتح الباري حـ٥.، ص ٨٢ كتاب "المظالم"، ومختصر صحيح البخاري جمعه شهاب الدين، دار المنار والنشر ١٤٣٣هـ – ٢٠٠٣م، إرشاد الساري ح٤، ص/٣٠١، ٣٠٣ وروى الحديث بعده كروايات مع تغيرات طفيفة "ص/ ٣١٨ باب "فضل سقي الماء" رقم الحديث ١٠٣.

قلبه، وصدق الرسول ﷺ إذا يقول: ".. ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلاح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"(١). وأن الرحمة تقتضي ما فعل إذا أن الرحمة أصلها: الرقة والعطف يقول ابن فارس: "الراءوالحاء والميم أصل واحد يدل على الرأفة والعطف، ويقال: من ذلك رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه"(٢).

بين الرسولﷺ في هذا الحديث فضل سقي الماء، والإخلاص لله في العمل، "والرفق بالحيوان والشفقة عليه لعجزه .. في إطار قصة سريعة"(٣).

فالطباق الوارد في الحديث بين قولهﷺ : "العطش" وقوله (فشرب) أكد على مدى احتياج هذا الرجل للماء وشدة عطشه، لأن النفس تنتقل من النقيض إلى النقيض، فبين أن الماء شئ مهم للإنسان لا يمكن الاستغناء عنه، كما أن الطباق جّسد هذا المعنى، وأكده في الذهن، فاستقر المعنى وتمكن، ثم يوازن الرجل بين حاله وحال ذلك الكلب، الذي وجده في الصحراء عشطاناً لدرجة أنه يأكل الثرى، فأتى الطباق بين قوله ﷺ (يأكل) و(العطش) ليبين ويؤكد على وجوب الرحمة بهذا الحيوان والرفق به، وفضل الإخلاص لله في العمل ويوجد في الحديث أيضاً طباق بين قوله: (نزل) وقوله: (رقى) لأن الرقي مأخوذ من "رقيَ إلى الشئ رُقيّا .. وترقى صعد"(٤). فـ (الرقي) ضد (النزول) وأكد هذا الطباق على معاناة هذا الرجل ومكابدته

(١) ينظر: فتح الباري حـ١، ص/ ١١٩، باب من "استبرأ لدينه".

(٢) مقاييس اللغة، حـ٢، ص/ ٤٩٧، مادة (رحم).

(٣) الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته كتبه تأليف، د/ محمد بن طلفي الصباغ، ص/٦٧، ط ٦"١٤١١هـ - ١٩٩٠م" المكتب الإسلامي، وينظر: الحوار الأدبي في القصص النبوي، دراسة تحليلية وفنية، د / عمر صديق محمد أحمد، ص ٨٠، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية باسيوط، جامعة الأزهر، ١٤٣٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٤) لسان العرب، حـ٤، ص ٣٣٣، مادة "رقى".

حتى وصل الكلب إلى الري المطلوب، يقول صاحب الروض الندي: "عالج النزول والصعود إلى البئر بصعوبة حيث كان يعالج بيديه ليصعد من البئر، وقد جاء في رواية البخاري "فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف به حتى أرواه" فهذا يدل على أن عملية الصعود والنزول قد تكررت للوصول إلى الري المطلوب"(١).

وتأتي بلاغة الرسول ﷺ في اختياره (الرقي) بدلاً من (صعد)، لأن: "الرقي أعم من الصعود .. والصعود مقصور على المكان، والرقي يستعمل فيه وفي غيره فهو أعم هو أيضاً يفيد التدرج في المعنى شيئاً بعد شيئ"(٢).

إن هذا الرجل كان في صحراء لا يبتغي من وراء عمله إلا الإخلاص وعدم الرياء فجازاه الله على ذلك بالغفران، وفضل سقي الماء، وأنه سبب في بقاء الإنسان.

ولقد آزر الطباق الاستعارة المكنية(٣)، في قوله: (يَأْكُلُ الثَّرَى) للمبالغة في شدة عطش ذلك الكلب، وتصوير احتياجه للماء بصورة محسوسة، فتأكد المعنى ورسخ، وساعد الطباق أيضا على التأكيد على صلاح القلب، لأن "الإصلاح يبدأ من إصلاح النفس من داخلها وهو القلب، وذلك عن طريق الإيمان بالله وتوحيده والتقرب إليه بالتقوى والعبادات والطاعات"(٤).

وهكا ترقى النص النبوي من محسن بديعي وبياني، وإيجاز

(١) ينظر: الروض الندي، ص ١٠٣، وفتح الباري، حـ١/ص ٢٤٢.

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري حققه حسام الدين القدسي، ص/١٥٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، مادة "رقى".

(٣) الاستعارة المكنية هي: التي لا يصرح فيها بلفظ المشبه به، بل يطوي ويرمز له بلازم من لوازمه ويسند هذا اللازم إلى المشبه.

(٤) ينظر: علم البيان دراسة تحليلية لمسائل لبيان د/ بسيوني فيود ص ١٧١، ط، ٣، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، المؤسسة المخار للنشر والتوزيع.

ومؤثرات صوتية أشار إليها صاحب النقد الأدبي فقال: "تجد في هذا الحديث الأدب الرفيع من أدبه ﷺ ، وتجد فيها البلاغة بكل ما يتطلبه الأدب من شحن للوجدان، وجذب للأذهان، ولا تنتهي بالمخاطب عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، بل أضاف إليها مؤثرات أخرى أكمل بها الأداء الفني، هذه المؤثرات هي الإيقاع بالموسيقى للكلمات "فنزل البئر – فسقي الكلب، فشكر، فغفر له"[1].

ويشير إلى الإيجاز الذي كان للطباق دور كبير فيه صاحب البيان النبوي حيث يقول:"الإيجاز المفرط فقد تضمنت لباب ما تضمن الأقصوصة المتسعة، ففيها التشويق والإثارة، وفيها التصوير النفسي للعواطف ... من الرحمة بالحيوان"[2].

(1) النقد الادبي أصوله ومناهجة، د / سيد قطب، ص / ٣٧. دارالفكر العربي، ط، ١٩٤٧م.

(2) ينظر: من البيان النبوي ص/ ١٢٧، (بتصرف).

القصة السادسة

إنظار المعسر

عن أبي حذيفة رضي الله عنه قالك قال النبي ﷺ "تلقت الملائكة رُوحَ ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قالك كنت آمر فتياني أن ينظروا الموسر ويتجاوزوا عن المعسر قال: فتجاوز الله عنه"(١).

الناس متفاوتون في حظوظهم، ويشعرون حيناً بالضيق، وحيناً بالفرج والسعة و"من القصص التي تعلم الصحابة الرحمة بالناس، ومديد العون للمحتاج، وإغاثة الملهوف إذا أتيت معسراً فتجاوزا عنه"(٢).

وقد حث الله سبحانه وتعالى – على التعاون فيما بين المسلمين بعضهم البعض ليكونوا أمة متماسكة وقوية، فقال تعالى:﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾"سورة الحديد: ١٨".

ليشعر المسلمين جميعاً، بأنهم كالجسد الواحد، وكالبينان المرصوص. ولقد وعد الله ذلك بالأجر الجزيل فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، "البقرة: ٢٦١".

ولقد جاء الطباق في قول الرسول ﷺ : (المعسر وقوله: "الموسر") للتأكيد على خاصية من خصائص الإسلام ألا وهي: التعاون والتقارب والتحابب بين

---

(١) ينظر: مختصر صحيح البخاري ص ٩٤٥ "كتاب البيوع" "باب من أنظر مؤسراً" رقم الحديث ٣٠٧٧. ص، ٥٠٠، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث ٣٤٥٠، ص ٨٥٥، وينظر: ص ٨٦٢، رقم الحديث، ٣٤٨٠، وروى مسلم: "كنت أداين الناس فأمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجوزا عن الموسر قال: قال الله عز وجل تجوزا عنه" شرح النووي لصحيح مسلم، حـ٦، ص ٤٣٥.

(٢) الحديث النبوي وعلم النفس، ص/١٧٥.

المسلمين، وجسد لنا الطباق هذا المعنى في شئ محسوس،وأكد أيضا على شمول تجاوزه عن كل من (المعسر) و(الموسر)، قد جعلهما سواء في الرحمة والعفو فاستحق بذلك غفران الله له وتجاوز عنه كما أن الطباق دال على المغايرة بين كل من المعسر والموسر، حيث جعل القارئ يقارن بينهما، فحينما يذكر المعسر يتبادر إلى الذهن ذكر نقيضه وهو الموسر، فكأن الاثنين قد اجتمعا في وقت واحد وهما غير متساويين، فثبت بذلك معنى التعاون، وبدأ وقدَّم الرسول ﷺ المعسر للاهتمام به لأن المعسر أشد حاجة للتجاوزعنه لسوء حاله وصعوبة معيشته، ومدى اليسر والسعة واللين التي يعيشها الموسر.

إذ إن مادة (العسر) مأخوذة من الصعوبة والضيق يقول ابن فارس: "العين والسين والراء أصل صحيح يدل على صعوبة وشدة فالعسر نقيض اليسر"[1].

واليسر مأخوذ من "اللين والانقياد .. والغنى والسعة"[2]. وتأتي جودة الصياغة النبوية في اختياره للتعبير عن الضدين (المعسر، الموسر) باسم الفاعل للمبالغة في الضيق والفقر التي يشعر بها المعسر، ومدى المفارقة بينه وبين الموسر الذي يعيش في سعة ويسر. ولقد آزر الطباق السجع، فساعد على زيادة التاثير والتنغيم الصوتى ، وأكد على أن "الجزاء من جنس العمل فيسر الله عليه حيث يسر على المعسرين"[3].

(1) مقاييس اللغة، حـ٤، ص/٣١٩ مادة "عسر".

(2) ينظر: المرجع السابق، ٣٤٣/٦، مادة "يسر".

(3) الروض الندي في القصص النبوي، ص/١٤٠.

القصة السابعة

الحث على الزواج

كنا مع رسول الله ﷺ فقال: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ﴾ (١).

لقد حث الرسول ﷺ في هذا الحديث الشباب إلى "التعجيل بالزواج والتبكير فيه ولا بد لهم من ترتيب شئونه كلها – الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والروحية، ولا يقيم حاجزاً واحداً أمام تنفيذه، ولا يجعل شيئاً من الأشياء يحول دونه إلا في الظروف القهرية"(٢)، كعدم المقدرة على مؤن النكاح، حينئذ يلجأ إلى الاستعفاف والصوم، فإنه وقاية له من كل شر.

وصدق الله إذ يقول: وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "سورة النور: ٣٣" ومع ذلك فالزواج مهم، لأنه يعمل على بقاء النوع والتكاثر وعمارة الدنيا.

فالطباق النبوي في الحديث بين (استطاع) و(من لم يستطع) وهو الطباق السلب لإن (عدم الاستطاعة) تؤكد لنا الاستطاعة، وهو الأصل، فيؤكد إلى أنه في حالة الاستطاعة يجب التبكير بالزواج والحث عليه لأنه "ينظف المجتمع من الفتنة

---

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب الصوم باب "من خاف على نفسه العزبة"، رقم الحديث: ١٩٠٥، ص ٤٥٩، كتاب النكاح، باب "من استطاع الباءة" رقمه ٥٠٦٦، ص، ١٢٩٢، فتح الباري، حـ٤، ص/١٠١ باب "هل يقول إني صائم إذا شتم" الديباج على صحيح مسلم، حـ ٦/٤.

(٢) التربية الإسلامية، د/ محمد علي قطب، ص/٤٦٦ .

الهائجة والمثيرات الجنونية، ولا يجعل هذا الدافع في حالة هياج مستمر مسعور"[١]، "ويكون قادراً على التحكم في نفسه، وضبط انفعالاته وأهوائه، .. قبل أن يقع في تصرف طائش يضر به أو نعبره، فيصعب علاجه"[٢].

" وإن العشق قد يؤدي إلى الموت"[٣].

والطباق أكد على عدم استواء الأمرين (الاستطاعة) وعدم (الاستطاعة)، فترسخ المعنى في الذهن، وأوجز من خلال ذكر المعنى مرتين، مرة بلفظه، ومرة بضده[٤]. ولقد زاد من حسن الطباق وقوى من تجسيده الكناية[٥]، الواردة في قوله ﷺ : (الباءة) بمعنى النكاح[٦]، على أحد الآراء، فأثارت الخيال، وحركت الوجدان، وجعلت النفس تتشوف إلى تتبع الحقيقة الغائبة[٧]، ألا وهي التأكيد على التبكير بالزواج.

وأيا كان المراد به (الباءة) القدرة على الوطء، أو مؤن النكاح[٨]، على الحذف، فإنه في كلا الحالتين، فإن الطباق قد أكد على علاج العشق بالزواج،

---

(١) التربية الإسلامية، د/ محمد علي قطب، ص/٤٦٦ .

(٢) ينظر:علم النفس وقضايا العصر د/ فرج عبد القادر طه، ص ٩٥.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية، ص /٩٩. (بتصرف).

(٤) ينظر: من بلاغة النظم العربي، علم البديع د/ عبد العزيز عرفة، ج٤ ص/٢٤، ط ٢ "١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٥) الكناية هي: "لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى المراد، يظر: عروس الأفراح للسبكي ص/٣٣٧، ومابعدها "ضمن شروح التلخيص".

(٦) ينظر: بلاغة الطباق والمقابلة في الحديث النبوي ص/٢٢٣، معلومات كاملة.

(٧) ينظر: القصص القرآني مفهومه ومنطوقه، ص ٤٤٣ (بتصرف).

(٨) بلاغة الطباق والمقابلة في الحديث النبوي في الحصحيحين إعداد صبحي عفيفي، ص ٢٢٣. رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

بجملة جواب الشرط (فليتزوج)، وكذلك التعليل الوارد في قوله: (فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج).

وهكذا نجد أن النص النبوي قد ارتقى من محسن بديعي وبياني ومعاني مما حقق كل ذلك الإيجاز، ولا عجب في ذلك ممن أوتى جوامع الكلم.

فالرسول ﷺ أوجد لنا العلاج النبوي من خلال هذا الطباق يقول صاحب كتاب الطب النبوي: لما كان العشق مرض من الأمراض، كان قابلاً للعلاج .. فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعاً وقدراً، فهو علاجه، (يا معشر الشباب) ... فدل المحب على علاجين أصلي وبديلي، وأمره بالأصلي، وهو العلاج .. إن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال معشوقه قدراً أو شرعاً .. فمن علاجه إشعار نفسه باليأس منه، فإن النفس إذا يئست من الشئ استراحت منه .. وهان عليهما تركه .. فعقله ودينه ومروءته وإنسانيته تأمره باحتمال الضرر اليسير الذي ينقلب سريعا لذة وسروراً"[1]، "فإن البديلي وهو الصوم، فإنه يُضعف من حدة الدافع الجنسي من جهة ويشغله عن التفكير فيه من جهة أخرى، بما يقوم به من تعبّد وتقرب إلى الله .. وأن يجد في الحياة معها الأمن والطمأنينة وراحة البال[2]، وهذا ما أكده علماء النفس[3].

(1) ينظر: الطب النبوي لابن القيم الجوزيه تح / محمد علي القطب ص ١٧٠، ١٧١، حـ١" ١٤٠٣٣هـ - ٢٠١١م. المكتبة العصرية – صيدا – بيروت.

(2) انظر: الحديث النبوي وعلم النفس، ص ٩٦.

(3) علم النفس في حياتنا اليومية محمد عثمان نجاتي ص/٣، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٦١م.

القصة الثامنة

إيثار الآخرة

٤٣٣٠ ـ حدّثنا موسىٰ بن إسماعيلَ حدَّثنا وُهيبٌ عن عمرِو بن يحيى عن عَبّادِ بن تميم عن **عبدِ الله بن زيد بن عاصم** قال: «لما أفاءَ اللهُ على رسولهِ ﷺ يومَ حُنينٍ قسمَ في الناسِ في المؤلفةِ قلوبهم ولم يُعطِ الأنصارَ شيئاً ، فكأنهم وَجَدوا إذ لم يُصِبهم ما أصابَ الناسَ ، فخطَبهم فقال: يا معشرَ الأنصار ، ألم أجِدْكم ضُلاّلاً فَهداكم الله بي ، وكنتم متفرِّقينَ فألَّفَكم اللهُ بي ، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟ كلَّما قال شيئاً قالوا: اللهُ ورسولُه أمنُّ. قال: ما يَمنعُكم أن تجيبوا رسولَ الله ﷺ؟ قال: كلَّما قال شيئاً قالوا: اللهُ ورسولهُ أمنُّ. قال: لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا. ألا ترضَون أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ، وتذهبونَ بالنبيِّ ﷺ إلى رِحالِكم؟ لولا الهجرةُ ، لكنتُ امرأً منَ الأنصار ، ولو سلكَ الناسُ وادياً وشِعباً لَسَلكتُ وادِيَ الأنصارِ وشِعبَها. الأنصارُ شِعار ، والناسُ دِثار ، إنكم ستَلقَون بعدي أثرةً. فاصبِروا حتى تَلقَوني على الْحَوض».

ﷺ ذلك، قال لهم: **"أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله وتحوزونه في بيوتكم؟"**

ففي الحديث النبوي، وهذه الخطبة القصصية قد اجتمع فيها أكثر من طباق أكد على أن الآخرة هي الدار الأفضل والباقية على متاع الدنيا الزائل، ومنها الطباق بين قوله ﷺ : "يعطي قريشاً ويتركنا" فما بين الإعطاء والترك طباق أكد على إعطاء الرسول ﷺ الغنائم لقريش، وعدم أخذ الأنصار من تلك الغنائم، لأن الذهن ينتقل من "الإعطاء لقريش إلى الطرف المضاد له مباشرة وهو الترك، وبذلك يتأكد لإعطاء، كما أن الطباق أشعر بالتشويق والإثارة إلى معرفة سبب ذلك، والطباق

---

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب "غزوة الطائف سنة ثمان"، رقم الحديث، ٤٣٣١، ص ١٠٥٩، كتاب فرض الخمس باب "ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم وغير من الخمس"، رقم الحديث ٣١٤٦، ص ٧٥٥، حـ٤، ص ٩٤ باب: "أداء الخمس من الدين".

جعل الإعطاء والترك قد اجتمعا في وقت واحد، وكأن الرسول ﷺ أحاط بهما، ولا مسافة بينهما "فأراد الرسول ﷺ أن يعاتبهم على ما صدر منهم تجاهه قبل أن يطيب نفوسهم، فبين فضله عليهم، فقال: "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفاكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي"[1].

فالطباق وقع بين قوله: (ضُلالاً فهداكم) وقوله: "متفرقين فألفكم" وقوله "عالة فأغناكم"، حيث أكد على هدايتهم، وكونهم كانوا متفرقين فألف بينهم، وكانوا فقراء فأغناهم، وانتقل الذهن مباشرة من كونهم ضلالاً إلى كونهم قد اهتدوا، وأكد أيضاً على تذكيرهم بنعمة الهداية، والمقارنة بين حالتهم قبل دخولهم الإسلام واستجابتهم للدعوة المحمدية وحالتهم بعد دخولهم الإسلام، مما يؤكد على مدى النعمة والفضل الذي حازوه ومدى اصطفائهم على باقي الناس، فيزداد بذلك إيمانهم بالله، وتمسكهم بدعوة رسوله ﷺ ويكون بذلك إيمانهم عن اقتناع ويقين.

ورشح الطباق السجع فهما اللذان ساعدا على استدعاء كل تلك المعاني عن طريق شحذ الذهن، والتأمل والإيحاء، والتآخي بين المتضادات، فجعل بينها تناسب وائتلاف وتناغم .

وتسهم البلاغة النبوية العالية في اختياره لصياغة الأضداد بالإسمية والفعلية، حيث عبر عن (الهداية والائتلاف والغنى) بالفعل الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، فترسخ في ذهنهم فضل النعمة والتذكير بها على أكمل وجه، ثم عبر عن الأضداد الأخرى وهي: (الضلالة، والتفرق، والفقر)، بالإسمية للدلالة على ثبوت تلك الصفات لهم وملازمتها لهم، ومدى استفحالهم في الضلالة والتباعد وسوء حالهم وفقرهم، مما يدعوهم إلى التمسك بالرسول ﷺ، ويحصل عندهم الإقناع بما

(1) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين ص/ ٢٨٥.

فعله الرسول ﷺ وإذعانهم له.

وتأتي البلاغة النبوية أيضاً – في التعبير عن (الضلالة) بصيغة جمع التكسير (ضُلاَّلا) على وزن (فُعَّال) جمع تكسير جمع (ضُال) على وزن (فاعل) للدلالة على الكثرة، ومما يزيد الشعور بالكثرة هو التضعيف للدلالة على المبالغة في الضلالة والكفر، ويظهر ذلك أيضاً من خلال ضم أوله وهو حرف (الضاد) مما أفاد التفخيم القوة حيث أن الضاد حرف مجهور مطبق[1] العين، فأفاد مدى تعنتهم وضلالهم وطغيانهم.

وكذلك ضم الرسول الضاد للدلالة على الاندهاش والفرع والغضب، مما صدر منهم من الاعتراض على حكمه يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "حينما يدهش المرء أو يفزع يميل عادة إلى فغر فمه، كما لو كان ينفس بعمق، فإذا زفر هذا الهواء الذي نفسه"، وجدناه يميل إلى الاستدارة قليلاً، ومثل هذا الوضع للشفتين يولد لنا صوت اللين المسمى الضمة"[2].

ثم يأتي بعد ذلك الطباق المعنوي الذي يبعث على التأمل والتفكير في قوله الرسول ﷺ: "يذهب الناس بالدنيا" و"وتذهبون برسول الله" فالطباق وقع بين قوله : (الدنيا) وقوله: (برسول الله) والذي يقابل الدنيا هي الآخرة، ولكن لما كان الرسول ﷺ هو الطريق الموصل للآخرة، عبر به عن الآخرة، فأكد الطباق على فوز الأنصار بالآخرة، لأن ذهاب الناس بالدنيا فيه تأكيد على ذهاب الأنصار بالآخرة، فأكد لهم أن اتباع الرسول ﷺ والإذعان له والامتثال لأوامره طريق مؤد إلى الفوز

(1) كفاية المريد، ص ٣٤، ٣٥.

(2) ينظر: دلالة الألفاظ تأليف/ إبراهيم أنيس، ص٢٤، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٥، ١٩٨٥م.

بالآخرة، وعدم استواء الاثنين في الفضل، لأن الطباق[1] جعل الأنصار تقارن بين الأفضل منهما وتتأمل وتفكر فيظهر لها بذلك فضل الآخرة على الدنيا وحكم لها بالخيرية، وهذا ما بينته نهاية الخطبة في قول الرسول ﷺ: "ما تنقبلون به خير مما ينقلبون".

(1) الطباق المعنوي هو: "أن يجمع بين معنيين ليس أحدهما مقابلا للآخر، ولكن يتعلق ذلك الأحد منهما بمعنى يقابل المعنى الآخر"، ينظر: مواهب الفتاح، حـ ٣٩٤/٤، "ضمن شروح التلخيص".

القصة التاسعة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ [١]وَالْوَاقِعِ[٢] فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا[٣] سَفِينَةً، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا)[٤].

معنى المعروف والمنكر:

لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى – بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في العديد من الآيات القرآنية، يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾، "سورة آل عمران، آية: ١٠٤".

وقال تعالى: على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾، "سورة لقمان، آية ١٧" جامعة كل معاني الخير والمنكر ما نهي عنه الشرع واستقبحه العقل السليم فهو كلمة جامعة لكل معاني الشر لأن "المجتمع كله مسئول عن محاربة الفساد والمنكر حفاظاً على سلامة المجتمع"[٥].

---

(١) حدود الله: ما نهي الله عنه، والقائم فيها: أي المنكر الذي يدفعها ويزيلها، ينظر: رياض الصالحين، حـ١/٧١، ٧٢.

(٢) الواقع فيها: أي مرتكب المعصية، ينظر: المرجع السابق، حـ١، ص ٧١/ ٧٢.

(٣) استهموا: افترعوا، ينظر: المرجع السابق، حـ١، ص ٧١، ٧٢.

(٤) ينظر: صحيح البخاري، كتاب الشركة باب "هل يقرع في القسمة والاستهام فيه"، رقم الحديث ٢٤٩٣، ص ٦٠٤، ٢فتح الباري حـ٤/ ٣٨٨ كتاب "المظالم"، رياض الصالحين، ح١/ ص ١٠١، باب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

(٥) الحديث النبوي وعلم النفس، ص/١٩٤.

والمعروف هو ما أمر به الشر واستحسنه العقل السليم، فهو كلمة وكان من الطبيعي أيضاً – أن يحثنا نبينا الكريم على ذلك في العديد من الأحاديث النبوية، خذ مثلاً قوله (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانُ) [1]، فحث الرسول ﷺ في الحديث الذي معنا في قوله: (مثل القائم في حدود الله) وقوله: (الواقع فيها) من هذا التقابل والطباق (قائم علي) بين (القائم) و(الواقع) للتأكيد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والمداومة والثبات على ذلك، لأن النفس تنتقل من النقيض وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزامه بالطاعات وعدم ارتكابه المنكرات إلى النقيض وهو مرتكب المنكر، فبذلك يتأكد المعنى ويرسخ، وتحدث المناسبة والتآخي بين النقيضين، كأنهما اجتمعا في وقت واحد، وأفاد الطباق –أيضاً – أهمية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لما لذلك من الأهمية في "تكوين أفراد المجتمع الإسلامي القوي، الخالي من عناصر التحلل والانهيار"[2]، ولأن هذين الأمرين فيهما صلاح الدين والدنيا معا .. وقهر النفس عليهما شأن له خطره، لأن النفس تحب السلامة من شر تجلبه النصحية عليها من جانب المنصوح..، والمنكر من المسائل التي تغرق النفوس في لذاتها يغويها ويقتنيهم، فليس من السهل قهر النفس على المعروف وليس من السهل قهر النفس على ترك المنكر"[3]، وكذلك الطباق بين (على وفي) قد وقع في المعنى إذ أن معنى (على) يفيد الاستعلاء[4]، أي أن الآمر بالمعروف والثابت على عدم ارتكاب

(1) رياض الصالحين ٧٢/١.
(2) ينظر: مدخل إلى البلاغة النبوية ص/١٦٧ (بتصرف).
(3) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص/١١٤.
(4) ينظر: من الأسرار البلاغية المقابلة ص ١٦/١٦.

المنهيات مستعلى بنفسه عن أن يرتكب تلك الذنوب وشدة تمكنه وثباته على موقفه: بينما مرتكب المنكر وقع في المحذورات والمنهيات فكأنما دخل فيها دخول الظرف في المظروف وعدم تخليه عن فعل ذلك.

ولقد ذكر الدكتور صابر عبد الدايم ما يستنتج من كلامه أن الطباق قد ساعد على الإيحاء والرمز والتشويق وإثارة الإنتباه والإيجاز حيث يقول: ".. حثنا بطريقة غير مباشرة على تزكية جانب الخير ... وبيان جزاء كل شخصية حسب عملها الذي قدمته[1].

لأن معنى كلامه، أنه ﷺ يرغب في الأمر بالمعروف، ويرهب من الوقوع في المنكر، لأن "خيرية الخير تتأكد لنا بالمفهوم من خلال شرية الشر"، لأنها مقترنة بها في الذكر.

وتأتي بلاغة الرسول ﷺ في دقة اختياره لألفاظ الطباق حيث إنه عبر بـ (القائم في حدود الله) بدلاً من الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما تفيده هذه الكلمة من العزم والثبات، واللزوم، وشدة التمسك بالمعروف، وعدم تغيير موقفه مهما مر الزمن، وهذا ما أفادته أصل الكلمة يقول ابن فارس: "القاف والواو والميم أصلان صحيحان يدلان على انتصاب وعزم"[2]، ويقول في موضوع آخر: "قام عندهم الحق أي ثبت ولم يبرح، ومنه قولهم: "أقام المكان هو بمعنى الثبات، قائم بكذا حافظاً له ومتمسكاً به"[3].

وعبر عن الضد بـ (الواقع) بدلاً من مرتكب المنكر ليفيد "الذلة والسقوط

(1) ينظر: الحديث النبوي، ص ٧٧ (بتصرف).

(2) مقاييس اللغة لابن فارس، حـ٤، ص٤٣، مادة (قوم).

(3) ينظر: المرجع السابق، حـ٧، ص٥٤٥، مادة (قام).

والتدني والسقوط إلى الهاوية"[١]، يقول ابن فارس: "وقع ومنه يقع على الشئ وقعاً ووقوعاً سقط"[٢].

وتأتي أيضاً دقة الرسول ﷺ في اختياره لصيغة اسم الفاعل في كلا الضدين، ليفيد بـ (القائم) و(الواقع) المبالغة في لزومه للأمر بالمعروف وشدة تمكسه به، والمداومةعليه، والتجدد والمشاركة، حيث أن الأمر بالمعروف يسير جنباً إلى جنب مع مرتكب المنكر، ومدى المبالغة في تشبثه فيا المنكر، وعدم تخليه عنه وشدة احتياجه لمن ينهيه عن ذلك.

كما أشار الدكتور عز الدين السيد إلى خاصيته أخرى للتعبير باسم الفاعل ألا وهي تحقق الوقوع فيقول: "اسم الفاعل واسم المفعول في قوة الماضي، ويجعلون علة التعبير بأحدهما بدلاً من المستقبل قَصْد الدلالة على تحقق الوقوع مبالغة كالدلالة بالماضي"[٣].

ويلاحظ أيضاً أنه وضع الظاهر موضع المضمر في قوله الواقع فيها بدلاً من الواقع في الحدود والمنهيات "مبالغة في التخذير إذ ارتكاب المنكرات هو تدان وسقوط"[٤].

---

(١) بلاغة التطبيقية، "بتصرف"، دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص، د / بسيوني فيود ص ١١٦.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، حـ٩، ص ٣١٤، مادة (وقع)، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. ط.أولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٣) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص ٣٥٣.

(٤) بلاغة تطبيقية، ص ١١٦.

والطباق قد قوى التشبيه التمثيلي[١]، وساعده على التشويق، والإثارة وشد الانتباه، كما أن "ضرب المثل من الأساليب التي تشوق السامع إلى الخبرة، وتمكنه في نفسه"[٢]، "وتجسد المعاني المجردة في صورة محسوسة من أجل تقريبها إلى الأفهام"[٣].

وساعد على التئام الأضداد وتحقيق التآخي والتناسب بين الضدين، فشبه هيئة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهيئة الواقعين في المنكر بهيئة ركاب سفينة .. قد أخذ كل من هؤلاء الركاب مكانه في السفينة .. بعد الاستهام والاقتراع، فكان بعضهم في أعلاها وهؤلاء يكونوا على الأطراف .. قريب منه الماء، وكان بعضهم في أسفلها، فكانوا بعيدين عن الماء[٤]، فأرادوا أن يخرقوا خرقاً ليصبوا منه الماء، فإن منعوهم عن ذلك نجو ونجوا جميعاً، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا".

وجه الشبه الهيئة الحاصلة من ترتب العقوبة والدمار عند ترك الأخذ بأيدي المخالفين والآثمين.

أو "ضرورة حد لحرية الفرد حتى لا يسئ إلى الآخرين، ووجوب التناصح والتناهي عن المنكر"[٥].

ويوجد –أيضاً– داخل التشبيه التمثيلي طباقان آخران:

---

(١) التشبيه التمثيلي هو: ما كان وجهه منتزع من متعدد أمرين أو أمور سواء أكان حسيا أم عقليا، ينظر: الإيضاح ٤/٩٠، وينظر: البيان في الأساليب العربية د/ عائشة فريد، ص ٧٧، ط ٢٠٠٠، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص ٦٨.

(٣) الحديث النبوي وعلم النفس، ص ٩٤ (بتصرف).

(٤) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، ص ٤٣٧ (بتصرف).

(٥) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي ، ص/٦٨.

أحدهما: الطباق بين قوله: (أعلاها)، و(أسفلها) وقوله: (أسفلها) و(فوقهم) قد أفاد التأكيد على عدم استواء الفريقين في النفع والضر، لأن النفس تنتقل من الضد (أعلاها) إلى الضد الآخر (أسفلها)، ومن الأسفل إلى (الفوقية) قد حدث بذلك المقارنة والموازنة، ومدى ارتفاع منزلة الآمرين بالمعروف، ومدى المنزلة العالية التي يرتقونها، ومدى منفعتهم للناس، بمقارنة المرتكبين للمنكر والمعاصي، فهم في المنزلة الدنيا، ومدى انحطاطهم وذلتهم، وضررهم لأنفسهم وغيرهم، ومدى احتياجهم للآمرين بالمعروف، وكما ساعد الطباق أيضاً على التشويق والإثارة لما حدث لكلا الفريقين.

ويلاحظ أن النبي ﷺعبر بالعين في (أعلاها) وهي حرف مجهور وتدل على التفخيم والقوة، بينما عبر بالسين في (أسفلها) لأن السين حرف مهموس فهو يفيد الخفاء والضعف، لأن المرتكبين للمنكر، يفعلون أفعالهم في الخفاء حتى لا يفتضح أمرهم، وهكذا نجد أن "الدلالة تستمد من طبيعة الأصوات"[1].

كما يلاحظ مدى شدة التأثير، والمفردات المتناغمة في السجع الوارد بين الضدين.

ثانيهما: التقابل والطباق الوارد في آخر الحديث في قوله ﷺ: "فإن أخذوا بأيديهم نجوا ونجوا جميعا"، وبين قوله: (وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وأهلكوا جميعاً".

فالتقابل بالطباق بين الطرفين قد أكد على "الحد من الحرية المطلقة"[2]، وإقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي

(1) دلالة الألفاظ، ص ٤٦.

(2) ينظر: التصوير الفني في الحديث، ص ٦٨.

بالمعصية"[1].

وهكذا نجد الطباقات السابقة والمقابلة والسجع والتشبيه التمثيلي على القول قد اضفوا رونقاً وبهجة، وقوى الصلة بين الألفاظ والمعاني، وجلا الأفكار[2]، وجسمها ووضحها أمام القارئ، فحدث بذلك الإقناع والتأثير.

(1) ينظر: فتح الباري، حـ٤، ص ٢٨٨، (باب المظالم).

(2) ينظر: علم البديع د/ عبد العزيز عتيق، ص ٨١ (بتصرف).

القصة العاشرة

حدّثنا محمدُ بنُ مقاتلٍ أخبرَنا عبدُ اللهِ أخبرَنا يونسُ عنِ الزُّهريِّ أخبرَني عروةُ بنُ الزُّبير «أن امرأةً سرقَت في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ الفتح ، ففَزِعَ قومُها إلى أُسامةَ بن زيدٍ يستشفِعونه. قال عروةُ: فلما كلَّمهُ أُسامةُ فيها تَلوَّنَ وَجهُ رسولِ اللهِ ﷺ فقال: أتكلِّمُني فى حدٍّ من حدودِ الله؟ قال أُسامة: استغفِرْ لي يا رسولَ اللهِ. فلما كان العشيُّ قام رسولُ اللهِ ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هوَ أهله ثم قال: أما بعدُ فإنما أهلَكَ الناسَ قبلَكم أنهم كانوا إذا سرقَ فيهمُ الشريفُ تركوهُ ، وإذا سرقَ فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليهِ الحدَّ. والذي نفسُ محمد بيدِه ، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمد سرَقَت لقطعتُ يدَها. ثمَّ أمر رسولُ اللهِ ﷺ بتلك المرأةِ فقُطعتَ يدُها. فحسُنَت توبَتها بعد ذلك وتزوَّجَت. قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفَعُ حاجتَها إلى رسولِ اللهِ ﷺ.

"إن إقامة العدل في المجتمع يجعل الحياة آمنة مطمئنة، فيسعد الأفراد والجماعات، ومن ثم أمر الله -تعالى- بالعدل فقال: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) [٢] "سورة النحل: ٩٠".

وهذا ما أكد عليه الرسول ﷺ في هذا الحديث حيث أن أسامة بن زيد ومعروف منزلته عند الرسول ﷺ طلب منه أن يشفع لتلك المرأة التي سرقت، فما كان من الرسول ﷺ إلا أن عرفه من خلال هذا التقابل والتضاد الوارد في كلامه في قوله: "إن سرق الشريف تركوه"، "وإن سرق الضعيف أقاموا عليه الحد" أكد له على أن هلاك من قبلنا كان بسبب ذلك الفعل، ولذلك أتى بالقصر الحقيقي الادعائي

---

(١) كتاب المغازي: رقم الحديث ٤٣٠٤ ص ١٠٥٣،١٠٥٢، وكتاب حديث الأنبياء باب " ما ذكر عن بنى اسرائيل " رقم الحديث ٣٤٧٥ ،ص ٨٦١.

(٢) الروض الندي/ ٤٢.

المبني على المبالغة والإدعاء[1]، في قوله: (إنما هلك من قبلكم) مما يدل على عظمه وخطره على المجتمع.

والطباق والتقابل بين الاثنين أكد –أيضاً– على المساواة في إقامة الحدود على من يستحقها بغض النظر عن مكانته، "وترك المحاباة في إقامة الحد على من وجب عليه، لو كان ولداً، أو قريباً، أو كبير القدر، والتشديد في ذلك" فيتحقق بذلك الانضباط في المجتمع ومما يؤكد على تلك المساواة أن الرسول ﷺ أتى بالضدين الأولين (الشريف والضعيف) [2] متساويين في عدد الحروف، وفي الحركات، وفي الحرفين الأخيرين، لينص على المساواة في القدر والمنزلة، فبالرغم من شهرة الشريف ومكانته وسط قومه، كان الضعيف مغموراً ومجهولاً ومشهوراً بقهره، وهذا ما دلت عليه (الشين) في (الشريف) من الدلالة على التفشي والانتشار، (والضاد) في (الضعيف) دلت على الخفاء والعناء فهي حرف مطبق مستعلى[3]، وبذلك أفاد مدى العنت والقهر الذي كان يشعر به الضعيف.

وبذلك يكون الذهن قد انتبه إلى وجوب إقامة الحد على الشريف لأن الذهن انتقل من الضد وهو (إقامة الحد على الضعيف) على التأكيد على تركهم للشريف، وبذلك يثبت المعنى في ذهن المخاطب ويتجسد أمامه، وهو عدم التهاون في ترك الشريف حينما يرتكب منكر فلا بد أن يطبق عليه الحد مثله مثل الضعيف، وبذلك تقل الجرائم في المجتمع.

وتأتي بلاغة الرسول ﷺ في تقديمه لـ (الشريف) على (الضعيف) "لأن المخالفة وقعت في عدم إقامة الحد على الشريف، أما إقامة الحد على الضعيف

---

(1) شروح التلخيص، ٣/١٧٤.

(2) الروض الندي، ٤٨.

(3) ينظر: النشر.

فليس من المخالفة"[1].

ونجد أن الرسول ﷺ عبر عن النقيضين الأولين بالإسمية في قوله: "الشريف والضعيف" للدلالة على اللزوم والثبوت، فهذا الشريف صفة الشرف ثابتة له، وهذا الضعيف صفة القهر والضعف لازمة له، وفي النقيضين الأخيرين عبر بالجملة الفعلية في قوله: (تركوه وأقاموا) للدلالة على تحقق الوقوع، فإنهم أهملوا تطبيق الحد على الشريف بينما حرصوا على تطبيقه على الضعيف، وهذا ما أفاده أصل مادتي (الترك) و(الإقامة).

ثم تأتي بلاغة الرسول ﷺ في صيغ الأضداد حيث عبر عن (الشريف) بصيغة المبالغة على وزن (فعيل)، للدلالة على المبالغة على مدى منزلة الشريف وارتفاع شأنه وسط قومه، بينما عبر عن (الضعيف) –أيضاً– بصيغة المبالغة على وزن (فعيل) للدلالة على المبالغة في قهر وضعف ذلك الضعيف، ومدى تجاهل قومه له، ولذلك نفَّر الرسول ﷺ من التفرقة بين الشريف والضعيف بالتأكيد على ذلك من خلال القسم في نهاية الحديث في قوله "والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" وبذلك يكون قد أثبت لزيد وغيره على تأكيد المساواة في إقامة الحدود دون التفرقة بين قريب وبعيد، أو بين غني وفقير، فالإسلام ينظر إلى الناس بنظرة واحدة ومتساوية في تطبيق أوامره ونواهيه.

وتخصيص "فاطمة –رضي الله عنها– المبالغة في إثبات الحد على كل مكلف وترك المحاباة في ذلك[2].

القصة الحادية عشر

(1) ينتظر: شرح أحاديث صحيح البخاري الدكتور/ محمد أبو موسى، ص ٣٢٥، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط.١، ١٩٨٣م.

(2) الروض الندى، ص ٤٢.

تعذيب الحيوان

(دَخَلَتِ امْرَأَةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ[1] الأَرْضِ[2]).

لقد حثنا الله على الرحمة بالإنسان والحيوان، لأن الله –سبحانه وتعالى– رحمته وسعت كل شئ، سواء إنساناً أو حيواناً أو جماداً يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) وحث الله تعالى نبيه الكريم على الرحمة فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ).

ولقد "شمل عطفه الأحياء والجماد من الأحياء"[3]، والعطف على سائر المخلوقات جميعاً، وحث الرسول ﷺ أصحابه على التراحم فيما بينهم "ليكونوا أناساً كاملين مثاليين يملؤهم الحب والخير، ويفيض حبهم فيغمر ما في الكون"[4].

بين لنا الرسول الكريم في هذا الحديث أن هذه المرأة استحقت العذاب ودخول النار، ليس فقط لعدم إطعامها الهرة، ولكن أيضاً – لتعذيبها وربطها – إلى أن "ماتت الهرة جوعاً وعطشاً، فاستحقت العذاب، فلو كانت سقتها لم تعذب"[5].

فالطباق في الحديث الشريف بين قوله ﷺ: "ربطتها، وقوله: (أرسلتها)

---

(1) خشاش: أي: هوامها وحشراتها، ينظر: النهاية في غريب الحديث، حـ٢، ص/٣٣.

(2) ينظر: صحيح البخاري، كتاب "المساقاه" باب "فضل سقي الماء" رقم الحديث، ٢٣٥٦، ص ٥٦٩، حـ١٣٠/٤ وكتاب بدء الله الخلق، باب "حديث الأنبياء" رقم الحديث ٣٤٨٢، ص ٨٦٢، باب "خمس فواسق يقتلن في الحرم" رقم الحديث ٣٣١٨، ص ٨١٥، رقم الحديث ٣٤٨٢، ص ٨٦٢، حـ١١٣/١، حـ١٧٧/٤، عبقرية محمد للعقاد، ٧٧ نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، وقد روى الحديث بأكثر من رواية مع تغييرات طفيفة.

(3) عبقرية محمد لمحمد عباس العقاد، ص ٧٧، (بتصرف).

(4) الحديث النبوي وعلم النفس، ص/٩٣.

(5) إرشاد الساري، حـ٤، ٣٠١، ٣٠٣، الروض الندى، ص ٢٠٣.

تأكل من خشاش الأرض"، أفاد كل المعاني السابقة، وأكد على وجوب الرحمة والرفق بالحيوان، وعدم الاستهانة بالذنوب وإن صغر، كما نفَّر الطباق من فعل هذه المرأة ومدى قدحه وبشاعته، وعدم استواء الطرفين المتضادين وتأتي دق الرسول ﷺ حيث عبر عن المعنى بدقة فالربط يضاد الإرسال والحرية لكي تتمكن الهرة من طعامها وشرابها، وهذا الطباق طباق معنوي، لأن الذي يقابل (ربطتها) هو الفك والحرية، وليس الارسال ولكن لما كان كونها مرسلة تأكل من خشاش الأرض يقتضي الحرية والانطلاق، عبر بها عن الحرية، فالطباق دعا إلى التأمل في الطرف الخفي فاستقر المعنى في الذهن وتجسد أمامنا، وهو أن هذه المرأة قد سلبت تلك الهرة نعمة الحياة المتحققة في الحرية والطعام والشراب، فهلكت أنسجتها ولم ترحمها، فبذلك تأكد "شدة عذاب من يعذب الحيوانات"[1].

وانظر إلى التناغم الصوتى بين (ربطتها) وقوله: (وأرسلتها)، وانظر إلى الإيجاز الذي ساهم فيه الطباق بدور كبير، لأنه اختصر تلك القصة في بضع كلمات.

وعبر بالفعل الماضي في قوله: (أرسلتها) للدلالة على تحقق الوقوع وعبر عن الطرف الآخر وعدم الاستهانة بما فعلته تلك المرأة، حيث كان سبباً في هلاكها ودخولها النار.

(1) الهدى النبوي والإرشادات الحمدية، ص/٩٦.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على رسوله المصطفى محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد ،،،

بعد دراستي لبعض النماذج المختارة من الطباق في القصص النبوي في صحيح البخاري، أجد نفسي أني قد استخلصت النتائج الآتية:

(١) أن الطباق في القصص النبوي قد ورد عفوي وتلقائي وغير متكلف، "فهو حُسْنُ طبيعي غير مقصود لذاته"[١].

(٢) أن الطباق النبوي يأتي لأغراض بلاغية بحسب المقام، فبذلك يتقرر المعنى ويتأكد، من خلال ذكر ضده، "فإن إبراز الضدين في الجملة يبعث على تأمل الضد ليكشف خفايا الضد الآخر، ويعمق معناه في النفس، ويزيد من الإحساس به"[٢]، "لأن الضد يُظْهِرُ حُسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء"[٣].

(٣) الرسول ﷺ، قدرة بلاغية في اختيار الأضداد بألفاظ ذات إيقاع موسيقي محبب، بحيث يحصل بذلك التعاطف بين اللفظ والمعنى، والانسجام في إيقاع الحروف، وبذلك يحدث التأثير والإقناع الذي أراده الرسول ﷺ من الأوامر أو النواهي[٤].

(٤) قد كان للموازنة والتقابل أثراً كبيراً في التشويق والإثارة والتناغم الموسيقي، فشد من أزر الطباق النبوي وقواه.

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية،ص/٣٣٩ (بتصرف).

(٢) ينظر: مراعاة حال المخاطب، ص ٦١٧، نقلا من المرجع السابق.

(٣) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص/٣٣٩.

(٤) ينظر: الحديث النبوي مصطلحه، وبلاغته، ص/٧٩ (بتصرف).

(٥) التناسب والتآخي قد حدث من خلال ذكر الرسول ﷺ – للأضداد على خلاف ما اعتقده البعض، من أن المشابهة هي التي تحقق ذلك، وذلك لأن الضد أكثر خطوراً بالبال.

(٦) استطاع الرسول ﷺ أن يؤكد من خلال الطباق على العديد من الأخلاق الإسلامية، والترغيب في الطاعات، كالرحمة بالحيوان، والحث على البر بالوالدين، والتوبة، وإنظار المعسر وغيرها، وبذلك يسارع المسلم إلى التحلي بتلك الخصال والصفات الحسنة.

(٧) استطاع الرسول ﷺ أن يوظف الطباق للتأكيد على ضرورة البعد عن المفاسد التي تؤدي بالإنسان إلى هلاكه، كعدم الأمر بالمعروف، أو تقنيط المسلم من رحمة الله، أو تعذيب الحيوان وغيرها من المنهيات، فيسارع المسلم إلى اجتنابها، وفعل أضدادها.

(٨) استعانة الرسول ﷺ بالفنون البلاغية، كالتشبيه التمثيلي أو الكناية، أو السجع بجوار الطباق ليترسخ المعنى ويتمكن في ذهن المسلم، ولمعرفته ﷺ بأن هذه الفنون تتأزر ولا تتعارض، وتعضد بعضها بعضا.

(٩) الطباق النبوي قد ساعد على الإيجاز والاختصار، ولا غرابة في ذلك مما أوتى بجوامع الكلم، واختصر له الحديث اختصاراً.

(١٠) ثراء الرسول ﷺ بالعاطفة الجياشة ومهارته اللغوية، حيث أنه يستطيع أن يعبر عن المعنى بأكثر من لفظ، ويختار له اللفظ المناسب في كل مرة.

(١١) يزداد جمال المطابقة عندما ترشح بنوع من أنواع البديع يشاركها في البهجة والرونق .. ويرتفع جمالها .. كالجناس واللف والنشر، والتورية وغيرها[1].

(١٢) الطباق النبوي جسد المعنى وصوره بصورة محسوسة، ليتمكن المعنى في

(1) ينظر: علم البديع، د/ عبد العزيز عتيق/٧٣.

النفس، ولشد الانتباه.

(١٣) كان للأصوات ارتباط في تحالف الدلالات، لأن الدلالة تستمد من طبيعة الأصوات[١].

(١٤) ربط الرسولﷺ الطباق بالحالة النفسية، فكان بذلك أكثر تأثيراً وبهجة وجمالاً.

(١٥) بعض الطباقات أتت على صيغة اسم الفاعل للمبالغة، لأن "زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى"[٢]، وكثر الطباق بالإسم وقل بالفعل.

(١٦) كان للسرد دوره في القصص النبوي، وساعد الطباق على التشويق وشد الانتباه، والمتابعة لما يجري من أحداث، والتطلع بما خفى عليهم.

إلى غير ذلك من النتائج التي يمكن أن نجدها في ثنايا الدراسة، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

الباحثة

هدى أحمد محمد زين

---

(١) دلالة الألفاظ، د/ إبراهيم أنيس، ص ٤٦.

(٢) دراسات في فقه اللغة، د/ صبحي الصالح، ١٧٤. يكتب معلوماته كاملة دار العلم للملايين – بيروت – لبنان، ط. أولى ١٣٧٩هـ – ١٩٩٦م.

المصادر والمراجع

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تح / محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ط. دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

(٣) الألوان البديعية، د / حمزة الدمرداش، ط٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٤) الأنوار الجلية في البلاغة النبوية، د / وليد سعيد الشيمي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٥) الإيضاح للخطيب القزويني، "ضمن شروح التلخيص"، ط. دار البصائر، بدون تاريخ.

(٦) البلاغة فنونها وأفنانها، د / فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١٠، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٧) بلاغة تطبيقية، د / بسيوني فيود، مؤسسة المختار، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٨) البيان في ضوء الأساليب العربية، د / عائشة فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢٠٠٠م.

(٩) البيان النبوي، د / محمد رجب البيومي، ط. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(١٠) البيان والتبين للجاحظ، تح د / عبد السلام هارون، ط. دار الجيل - بيروت، بدون تاريخ.

(١١) تحرير التحبير، لابن الإصبع المصري، تح / حفني شرف، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٣هـ.

(١٢) التحرير الأدبي، د / حسين على محمد، مكتبة عكيبان، ط٢، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٠م.

(١٣) التصوير الفني في الحديث النبوي، د / محمد لطفي الصباغ، ط. المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

(١٤) الجني الداني في حروف المعاني للمرادى ، تحقيق د / فخر الدين قباوة / طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – طبعة أولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

(١٥) الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه، د / محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

(١٦) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د / عز الدين السيد، ط. دار اقرأ، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(١٧) دراسات في فقه اللغة، د / صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١، ١٣٧٩هـ – ١٩٩٦م.

(١٨) دلالة الألفاظ، د / إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٨٤م.

(١٩) رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية، د/ يوسف العليوي، مكتبة الملك فهد للطباعة والنشر، ط ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

(٢٠) الروض الندي في القصص النبوي، د / أ حمد حيدر محمد الصادق، عالم الفكر، ط ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

(٢١) شرح عقود الجمان لجلال الدين السيوطي، مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م.

(٢٢) الطب النبوي لابن القيم الجوزية / محمد علي القطب، المكتبة العصرية – بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ – ٢٠١١م.

(٢٣) عبقرية محمد لعباس العقاد، ط. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢٤) علم البديع، د / بسيوني فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م.

(٢٥) علم البديع، د / عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٧٤م.

(٢٦) علم البديع نشأته وتطوره من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ، عبد الرازق زايد، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١٩٧٧م.

(٢٧) علم البيان، د / بسيوني فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م

(٢٨) علم النفس في حياتنا اليومية، د / محمد عثمان نجاتي، مكتبة الإنجلو المصرية، ط٣، ١٩٦١م.

(٢٩) علم النفس وقضايا العصر، د / فرج عبد القادر طه، الناشر عين الدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، بدون تاريخ.

(٣٠) علم النفس في حياتنا اليومية، د / محمد عثمان نجاتي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٦١م .

(٣١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تح / حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

(٣٢) فقه اللغة للثعالبي، مطبعة الآباء اليسوعين، بيروت – لبنان، ط، ١٨٨٥م.

(٣٣) القصص القرآني مفهومه ومنطوقه، د / عبد الكريم الخطيب، ط. السنة

المحمدية بالقاهرة، ط١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
(٣٤) كفاية المريد في علم التجويد لمحمود حافظ برانق – مطبعه، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
(٣٥) لسان العرب لابن منظور، ط. دار الحديث، دار الحديث القاهرة، ١٤٣٣هـ - ٢٠٠٣م.
(٣٦) مختارات من القصص النبوي، دراسة تحليلية تربوية، د / طلعت عفيفي، ط. الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
(٣٧) مختصر إحياء علوم الدين اختصره أبو حامد الغزالي، تح / أحمد عبد الرازق البكري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.
(٣٨) مدخل إلى البلاغة النبوية، د / حلمي القاعود، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١١م.
(٣٩) مفتاح العلوم للسكاكي المطبعة الميمنية، مصطفى البابي الحلبي وشركاه.
(٤٠) من بلاغة القرآن، د / أحمد بدوي، ط. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط. أولى.
(٤١) من بلاغة النظم العربي، د / عبد العزيز عرفه، ط٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
(٤٢) منهج التربية الإسلامية، د / محمد القطب، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
(٤٣) النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام الجزري ابن الأثير لمحمود محمد الضاحي.
(٤٤) الهدى النبوي والإرشادات المحمدية إلى مكارم الأخلاق، لعبد الله سراج الدين، بدون تاريخ، المكتبة الإسلامية.

الرسائل والأبحاث المنشورة:

(١) الحوار الأدبي في القصص النبوي، دراسة تحليلية فنية، رسالة ماجستير إعداد، د / عمر صديق محمد أحمد، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية، بأسيوط ١٤٣٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) بلاغة الطباق والمقابلة في الحديث النبوي في الصحيحين، رسالة ماجستير، إعداد: صبحي إبراهيم عفيفي، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٣) من أسرار المقابلة القرآنية، د / هويدا إبراهيم حسن، بحث منشور في مجلة الزهراء بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة، جـ٢، العدد الثالث والعشرون، ١٤٣٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٤) النسق البلاغي للكلم النبوي، إعداد : د / عبد الهادي الدحاني، بحث منشور في مجلة ندورة الدراسات البلاغية بين الواقع والمأمول بكلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٢هـ ٢٠١٢م.

كتب الحديث وشراحه:

(١) صحيح البخاري ضبطه / محمد زهير ناصر الناصر، ط. طوق النجاة – بيروت – لبنان، ط١ – ١٤٣٣هـ.

(٢) صحيح البخاري بشرح الكرماني، ط. إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣) إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري للقسطلاني، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

(٤) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، دار إحياء

التراث العربي – بيروت – لبنان.
(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٤هـ.
(٦) مختصر صحيح البخاري للزبيدي، حققه شهاب الدين الشرجي، دار المنار، ١٤٣٣هـ – ٢٠٠٣م.
(٧) مختصر صحيح مسلم للألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٦، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
(٨) رياض الصالحين للألباني – الناشر المكتب الاسلامى ط أولى ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .